رسالة ووصية

من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر الهجري

هاشم عبد الرؤوف

مؤسسة الرسالة
دار البشير


رسالة ووصية
من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر الهجري

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٦٠٣٢٤٣ - ٨١٥١١٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران

دار البشير

ص.ب (١٨٢٠٧٧) / (١٨٣٩٨٢)
هاتف: (٦٥٩٨٩١) / (٦٥٩٨٩٢)
فاكس: (٦٥٩٨٩٣) / تلكس (٢٣٧٠٨) بشير
مركز جوهرة القدس التجاري / العبدلي
عمان - الأردن

Dar Al-bashir

For Publishing & Distribution

Tel: (659891) / (659892)
Fax: (659893) / Tlx. (23708) Bashir
P.O.Box. (182077) / (183982)
Jerusalem Jewel Trade center Al-Abdali
Amman - Jordan



من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر الهجري

هاشم عبد الرؤوف



مؤسسة الرسالة



رسالة وَ وَصيّــة

من القرن الخامس . . إلى القرن الخامس عشر الهجري

هاشم عبد الرؤوف

استفتاحيـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمد الشاكرين المسبّحين، والصلاة والسلام على محمد (ﷺ) النبيّ الأُمي العربيّ المبعوث رحمة للعالمين.

﴿وقال ربّ اشرح لي صدري ويسّر لي أمري واحلل عقدة من لسـاني يفقهوا قولي﴾(١).

أما بعد؛

فإن الفجر يبدأ بالتولد في هجيع الليل الأخير وظلمته، وعامة الناس يغطّون في نومهمُ العميق، لا يدرون ماذا تخبىء لهم الأقـدار في النهـار، ولا يحثّـون الخطى أبداً لتغيير واقعهم، الـذي يتصـرّف فيه الأعـداء كيفما يريدون، بينما يكون أقرانهم من خاصتـهم مشغولين في إبقائهم على هذه الحال ليخلو لهم الجو في إدارة شؤون البلاد كيفما يشاؤون.

ويكـون أعداء الأُمة في الوقت ذاته في حالة استيقاظ وتفكير وتدبير. أما إرادة الله ومشيئته فقد اقتضت أن يحدث التغيير. فكانت دورة الحياة المستمرة؛ تتطلب دائماً حياة بعـد موت، وعـطاءً بعـد جدب، تمـوت أُمـة ودولـة، فيأذن المـولى القدير لأمّة بالأُفول ولحضارتها بالموات وَيُحيـي أُمّة أُخرى من الموات فيبعث فيها الحياة وتنشأ عنها حضارة ودولة **﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾**(٢)، إنها سُنّة الله الأزلية **﴿ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾**(٣) والأمل معقود على أن يبعث الله الحياة في هذه الأُمة وينفخ فيها الروح من جديد..

---

(١) القرآن الكريم، سورة طه، آية ٢٥ـ٢٨.

(٢) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ٢٥١.

(٣) القرآن الكريم، سورة الأحزاب، آية ٦٢.

المقدمــة

هذه دروس من تاريخنا الماضي البعيد في الأندلس إبّان عصر الانقسام والانهيار، تؤكد أن أعـداء الأمّة الخارجيين ليسوا أكثر خطراً عليها من أعدائها في الداخل، وإن الصراع الداخلي يزداد اتساعاً عندما تُغلّب المصالح الفردية والفئوية على مصالح الأمة ووجودها.

أمّا الدروس فنستفيدها من قَصَصْ دويلات الطوائف في الأندلس وعلى رأسها دولتي طليطلة وسـرقسـطة، والاقتتـال الدموي الرهيب الذي اندلع بينهما، واستعانتهما بالقوى الأجنبية المعـادية المتـربّصـة بهمـا الـدوائـر وبـالـوجـود الأندلسي كلّه، وتسابقِ حكّام دويلات الطوائف إلى تقديم الهدايا والأموال الطائلة إلى القوى الأجنبية المعادية، والاستعانة بها ضد إخوة الدين والوطن والمصير المشترك، غير مبالين بمقدّرات (أوطانهم) ومصير شعوبهم، حيث إنهم لم يتورعوا عن وضع أيديهم بأيدي الأعداء المتربصين، ولم يتباطئوا في التآمر والتواطؤ مع تلك القوى ضد إخوانهم وجيرانهم من بني جلدتهم، ووقفوا موقف المتفرج بل الـداعم لعقـر الـوجـود الأنـدلسي. . ودفعِهِ إلى المصير الذي آل إليه فيما بعد، مُغلّبين مصالحهم على مصالح الأمة والوطن ووجودهما، غير واعين أو مكترثين بالنتائج، فبلغ فيهم الأمر مبلغه عندما أقدم ابن رزين البربري المعروف بابن الأصلع أمير شنتبرية الشرق على تقديم الهدايا التي بلغت قيمتها مائة ألف دينار إلى الفونسو السادس ـ مُحمّلاً مواطنيه عبئاً ثقيلاً ـ مقابل نيله رضى الفونسو ملك قشتالة عام ٤٩٦هـ ليقره على حكم شنتبرية، بعد وفاة والده، وليتجنّب غوائله، فما كان من الفونسو إلاّ أن أمر لابن الأصلع بهدية تليق بمقامه فوهبه قرداً، فتباهى ابن الأصلع بقرده وفاخر به أقرانه!!!

كما أننا نستفيد من درس الانقسام والتفكك والاقتتال الداخلي في طليطلة، والقبول بعقد المعاهدات مع المنتصرين وتصديق مواثيقهم، وكذلك إشراك كلّ ذوي النفوذ والسلطة في المجتمع، ليكون التوقيع على المعاهدة مُلزِماً للجميع ولعامّة الشعب وخاصتهم.

كل ذلك كان لِخدمة حفنة من المتنفذين وذوي المصالح، ومَنْ يملكون بين جوانحهم نفوساً متعفّنـة، وذلك بإظهارهم مبدأ القبول بالتسليم (تسليم الأوطان) وبعقد اتفاقيات أو

معاهدات الصلح مع أعداء الأُمة على أنه أمر اضطّروا إليه، أو إنه إنجاز عظيم تمّ تحقيقه عن طريق المفاوضات، وهو أمرٌ لم يكن من السهل على المواطنين تحقيقه عن طريق الحرب، فقد أسهم سماسرة الاتفاق في تزيينه للناس، مقابل حصولهم على مكاسب شخصيّة غير مُعلَنة بإخفاء حقيقته وشروطه التي كانت باهظة التكاليف!!

واستغلّ المنتفعون الأوضاع المتردّية في البلاد للترويج لهذا الاتفاق، وزجّوا بقيادات القوى الشعبية في المجتمع للدخول في عملية التفاوض مع الغزاة لتوريطهم فيها، وتحميلهم مسؤولية تسليم البلاد فيما بعد للوفد المفاوض؛ بعد أن قاموا بتغييب مَنْ مِن شأنه أن يقف في وجه مخططاتهم، وذلك بالقتل أو السجن أو النفي، خاصة لتلك الشخصيات من القيادات التي كانت ندّاً قوياً لهم ولمخططاتهم.

وإنّ ما حلّ بطليطلة وبمواطنيها بعد استيلاء القشتاليين عليها عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م، من تشريد وهجرة وتهجير من ديارهم وتغيير معالم المدينة، وصبغها بصبغة المستولي عليها، هو ما يتكرر حدوثه في بلادنا على أيدي محتلّين غاصبين، فيهجّرون أهل البلاد، كما يُغيّرون واقع البلاد ومعالمها البارزة كما غُيّرت معالم طليطلة الإسلامية. ولم يتنبّه الطليطليون بشكل خاص وأهل الأندلس بشكل عام للمصيبة التي حلّت بهم إلّا بعد فوات الأوان، فعندها بدأت صرخات تخرج من هنا وهناك منادية مستصرخة همم المسلمين، منبّهة للمصير المجهول الذي بدأ يلف أجواء منطقة الأندلس. ولكن ذلك كان بعد وضع السيوف على الرقاب وتجريد الأندلسيين من أسلحتهم الماديّة والمعنوية، فلم يفعلوا شيئاً إلّا ما حصل من قدوم إخوتهم من خارج الأندلس من المرابطين، ومن بعدهم الموحدين حيث تمكّنوا من إيقاف زحف الممالك النصرانية بعض الوقت، فحافظوا على أجزاء الأندلس المتبقية، ولو أن قدومهم قد تمّ قبل أن يستفحل الخطر ربما لتغيرت مجريات الأحداث. ولكنّها ضاعت لأن الأندلسيين لم يستطيعوا أن يعالجوا الأسباب، أسباب ضياعها... ولم يتركوا ما هم فيه من اختلاف وفُرقة، فغيبّهم التاريخ في مجاهله، وهذا هو المصير المحتوم لمن يمرّون بأوضاع مشابهة لأوضاع طليطلة بوجه خاص والأندلس بوجه عام إذا لم يُشمّروا عن سواعد الجدّ والعزيمة، ولم ينبذوا الفرقة والخصام والجبن والعصبيات الضيّقة التي حلّت محلّ الوحدة التي كانوا ينضوون تحت لوائها والتهرب من أداء ضريبة الدّم، ولم يتمسكوا بالوحدة والدفاع عن بلادهم ومعتقداتهم لصدّ الأخطار المحدقة بهم، وتلافي الوقوع في مصير كمصير أهل طليطلة والأندلس، أو أشدّ منه مرارة وقسوة.

وقبل الدخول في حيثيات الموضوع، لا بدّ من طرح بعض التساؤلات المهمّة التي تفيد الأجيال العربية المسلمة في أيّامنا هذه وخاصة في فلسطين العربية وما حولها، قد تفيدهم من خلال التعمق في فهم الأحداث التاريخية التي وقعت لأجدادهم في الأندلس، وتحليل تلك الأحداث قصد النظر والعبرة، إذ أن الأحداث قد تتكرر، والظروف قد تتشابه بين الماضي البعيد والحاضر القريب.

هل احترم المنتصرون الغزاة تعهداتهم؟ وهل يحترم كلّ مَنْ هو على شاكلتهم أيّة التزامات أو تعهدات؟ وما الذي جرّه الاقتتال والتناحر الداخلي والتنافس على الزعامات الزائفة، والمناصب الزائلة. . ؟! وما مصير مَنْ يركنون إلى حياة الدعة والهوان والاستكانة؟ أو إلى أيّ مصير تقودهم حياة اللهو والترف والملذّات، وحالة العداء أو الاستعداء بين الحكّام وشعوبهم؟ وما هو المصير الذي ينتظر مَنْ يضع يديه في أيدي الغزاة والمعتدين؟ وهل نفعهم ذلك أو أغنى عنهم شيئاً بعد أن أدّوا دورهم في خدمة القوى الأجنبية الطامعة والمتربّصة بأوطانهم؟ وهل وفّى لهم أولئك الأعداء بما وعدوهم ومنّوهم؟ وهل سيغني عنهم ذلك من الله شيئاً؟ وما هو موقف التاريخ والأجيال تجاههم؟ فهل مجّد التاريخ ذكرهم بعد موتهم؟؟

وما هو المآل الذي آلت إليه أوطانهم وأمّتهم أو قل ذوي قرباهم جرّاء عمالتهم لأعداء الوطن والأمّة؟؟ وهل التزم الغزاة المستكبرين وأوفوا بما عاهدوا عليه الشعب وممثليهم والتزموا بالاتفاقيات التي أبرمت معهم والتي وُثّقت بأسمائهم ومُهرت بتواقيعهم وغُلّظت بالأيمان!!! وما هو المصير الذي آلت إليه تلك الشعوب والأوطان بعد أن أبرمت باسمها وبالنيابة عنها الاتفاقيات والمعاهدات والمواثيق، والتي سلّمت قيادها إلى تلك الطغمة من المفسدين الذين لا يعنيهم أمرها ولا مستقبل أوطانها؟

وما هي الآثار التي خلّفها الصراع على السلطة في طليطلة والأندلس؟ والآثار والنتائج التي ترتبت على الحروب الاقتصادية والنفسية والمعنوية التي شنّتها القوى المعادية التي كانت تتحين الفرصة بالأندلس، وتتربص بها الدوائر؟ وما مدى نجاح أو فشل تلك الأنواع الخطرة من الحروب؟ وأخيراً هل راعى جمع الأشرار إلاّ أو ذمّة في جمع المؤمنين، من المغلوبين والمقهورين؟؟ أم صدق فيهم قول الشاعر الذي هزّه ما أصاب المسلمين في طليطلة فنبّه بقوله هذا الأمّة مُحذّراً:ـ

مَنْ جاور الشرّ لم يأمن عواقبه　　　كيف الحياة مع الحيّات في سفطِ؟

فهل يتنبّه ويعتبر مَنْ يمرّون ويعيشون أوضاعاً مشابهة. . . ويعتبروا بالمعاني التي وردت في قصيدة رثاء طليطلة التي منها:-

ولا تهنوا وسُلّوا كلّ عَضْب	تهابُ مضاربــاً منهُ النحورُ
لقد صمَّ السميعُ فلم يعوّلْ	على نباءٍ كما عميَ البَصيرُ
أنترك دُورَنا ونفرّ عنها	وليس لنا وراء البَحر دُورُ
رضوا بالرقّ يالله ماذا	رآهُ وما أشار به مُشيرُ
ولا تجنح إلى سلم وحارب	عسى أن يُجْبَرَ العظمُ الكسيرُ

نبذة مقتضبة عن مدينة طليطلة

تقع مدينة طليطلة في وسط شبه الجزيرة الايبيرية[٤] تقريباً، على مرتفع من الأرض يمتاز بتعدد المرتفعات الجبلية فيه، ويحيط نهر التاجة بموقعها من ثلاث جهات، إذ تعتبر طليطلة من أكثر مدن الأندلس حصانة ومَنَعة وأهميّة، وقد اتخذها القوط بعد دخولها عاصمة لهم عام ٥٦٨م، وظلّت كذلك حتى دخلها المسلمون فاتحين عام ٩٣هـ، ثمّ أصبحت في بداية العهد الإسلامي مركزاً لولاية طليطلة، إلى أن أضحت عاصمة بني ذي النون ـ الذين ينتسبون إلى قبيلة هوّارة البربرية ـ والذين تسلّموا حُكم طليطلة في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، واستمرّوا في حكمها حتى سقوطها بأيدي مملكة قشتالة عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م.

فكانت هذه الطبيعة سلاحاً ذا حدّين فكان يؤثّر ذلك عليها خلال الحصار، فالمَنَعة والحَصانة تحميانها وتقيانها شرّ عبث القوات المهاجمة، إلاّ إنها كانت تشكل في الوقت نفسه سلاحاً سهلاً بأيدي المهاجمين، إذ بكلّ سهولة يتمكنون من محاصرتها والتضييق عليها، وخاصة من خلال تدمير المحاصيل وتخريب الثمار التابعة لها التي كانت تقع خارج مجرى نهر التاجه، ممّا كان يمكّن المهاجمين من الإمساك بخناق طليطلة، فيحاربونها حرباً اقتصادية، كما فعلت مملكة قشتالة بقيادة الفونسو السادس عندما مهّد للاستيلاء عليها من خلال تخريب اقتصادها كمدينة، وتخريب موارد المناطق التابعة إليها آنذاك، ممّا أفقدها القدرة على مواصلة الدفاع والصمود فاستسلمت عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م.

تمت عملية الفتح الإسلامي للأندلس في النصف الأول من العقد الأخير من القرن الأول الهجري، حيث خُطّط لها بعناية تامة، فتمت العملية بنجاح كبير نظراً للاستعدادات

---

(٤) وتشتمل شبه الجزيرة الأيبيرية اليوم على مملكة أسبانيا وجمهورية البرتغال، وتطلق كلمة (Andalucia) على المنطقة الجنوبية من أسبانيا، علماً بأنّ لفظ الأندلس أطلقه المسلمون على كلّ الأراضي التي خضعت لهم في تلك البقعة الجنوبية من أوروبا، ثم أخذ المدلول يتقلّص تدريجياً بتقلّص نفوذهم.

التي أعدّت لها، والخطط التي نُفّذت لدخولها، حيث استفاد الفاتحون من كلّ الإمكانات المتاحة لهم والوسائل المتوافرة في أيديهم. كما أنّهم استغلّوا الظروف السياسية المتردّية في شبه الجزيرة الايبيرية فدخلوها فاتحين، وتمكّنوا من اجتياح البلاد في مدّة زمانية قصيرة نسبياً بالقياس إلى اتساع شبه الجزيرة الايبيرية[٥].

وكانت البساتين والأشجار والكروم تحيط بطليطلة الإسلامية[٦] وممّا امتازت به زراعة الرمان ونوعية ثماره[٧]، وكذلك الجلنار الذي ينمو حتى يصل إلى حجم الرمّانة[٨] وبجودة تينها[٩]، واشتهرت بالغلّات والتجارة والأسواق، حيث كانت لها سوقاً عظيمة[١٠]، وأكسبها إقليم الشارات والجبال المحيطة بها شهرة بالنسبة لتربية الأبقار والأغنام، والتي كانت تدرّ أموالاً كثيرة، حيث استفادت منها عن طريق التجارة وتصديرها إلى المناطق الأخرى[١١]. واتصفت طليطلة بلطافة هوائها وطيب تربتها وجودة زرعها[١٢]، إذ انتشرت فيها زراعة

(٥) نظر أبو مَلّوح، هاشم عبدالرؤوف، التاريخ السياسي لمدينة طليطلة في ظلّ الحكم الإسلامي ٩٣-٤٧٨هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، شباط ١٩٨٨م.

(٦) ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي البغدادي النصيبي، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص١١١؛ الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن محمد الحسيني، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في إختراق الآفاق، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٦٨م، ص١٨٨؛ ابن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى، المغرب في حلي المغرب، تحقيق وتعليق: د. شوقي ضيف، جـ٢، دار المعارف، مصر، ١٩٥٣م، ص٩.

(٧) القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، مطابع كوستاتسوماس، القاهرة، جـ٥، ص٢٢٨.

(٨) ابن سعيد، جـ٢، ص٨؛ أبو الفداء، السلطان عماد الدين إسماعيل صاحب حماة، تقويم البلدان، الدار السلطانية، باريس، ١٨٤٠، ص٧٧؛ القلقشندي، صبح، جـ٥، ص٢٢٨.

(٩) ابن سعيد، جـ٢، ص٩.

(١٠) ابن حوقل، ص١١١.

(١١) الإدريسي، صفة، ص١٨٨؛ الحميري، أبو عبدالله محمد بن عبدالمنعم، صفة جزيرة الأندلس، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، تعليق ونشر: ا. ليفي بروفنسال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٧م، ص١٣٣.

(١٢) ابن غالب، محمد بن أيوب، نص أندلسي جديد، قطعة من كتاب فرحة الأنفس في أخبار أهل الأندلس لابن غالب عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربع مئة، نشر: د. لطفي عبدالبديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، م: ١، جـ٢، القاهرة، ربيع الأوّل ١٣٧٥هـ/ تشرين الثاني ١٩٥٥م،

الحبوب، كما اشتهرت بحفظ القمح والصناعات الغذائية، وقد قيل إن الغلال كانت تخزن في مطاميرها لمدّة سبعين سنة ولا تتغير[13]، وكان القمح يوضع في بطون الأهراء ويبقى سليماً لا تصله الآفات[14]، وإن دلّ هذا على شيء فإنه يدلّ على أنها اشتهرت بحفظ القمح والغِلال الأُخرى لفترات طويلة، وهذا ما أكّدته بعض المصادر[15].

واختصت طليطلة بزعفرانها عالي الجودة[16]، والذي استغل في التجارة، والصناعة النسيجية، بالإضافة إلى استعمالاته الأُخرى، فحقق لأصحابه أرباحاً كبيرة، فزادت مداخيل المواطنين والمتنفذين. كما أنّها تميّزت بصبغها السماوي[17] وتجارة الأصباغ والصناعات النسيجية، فقد ازدهرت فيها صناعة الملابس إبّان العصر الإسلامي ازدهاراً عظيماً، فوصلت إلى أوج عظمتها واتقانها[18]. واشتهرت شنتجالة إحدى المناطق التابعة لها بصناعة الوِطاء الجنجالي[19].

أما المعادن التي اشتهرت بها طليطلة فكان معدن الطّفل من أبرزها، وقد تركّز وجوده

ص٢٨٨؛ القزويني الإمام زكرياء بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م، ص٥٤٦.

(١٣) البكري، أبو عبيد الله بن عبدالعزيز، جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك، تحقيق: د. عبدالرحمن الحجي، ط١، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م، ص٨٨؛ ابن غالب، م: ١، جـ٢، ص٢٨٨؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، جـ٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٤٠؛ الحمري، ص١٣٣؛ المقّري، شهاب الدين أحمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د. إحسان عبّاس، جـ١، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ص١٤٣.

(١٤) ابن غالب، م: ١، جـ٢، ص٢٨٨.

(١٥) الحميري، ص١٣٣؛ القزويني، ص٥٤٥؛ المقّري، نفح، جـ١، ص١٤٣.

(١٦) ياقوت الحموي، جـ٤، ص٤٠؛ الحميري، ص١٣٣؛ المقّري، نفح، جـ١، ص١٤٣.

(١٧) البكري، ص٨٨؛ الحمري، ص١٣٣؛ المقّري، نفح، جـ١، ص١٤٣.

(١٨) ويستشف ذلك ممّا أوردته المصادر التالية: ابن الشبّاط، محمد بن علي التوزري، وصف الأندلس، قطعة من كتاب صلة السمط وسمة المرط، (أحمد مختار العبّادي، نصّان جديدان)، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، م: ١٤، مدريد، ١٩٦٧-١٩٦٨م، ص١١٧؛ الحميري، ص٣٩، ١٥١؛ المقّري، نفح، جـ١، ص٢٠١-٢٠٢.

(١٩) الحميري، ص١١٢.

في جبل طليطلة وقرية مغام التابعة لها[٢٠]، ونظراً لوفرته فقد استّغل استغلالاً تجارياً وصدّر إلى البلاد الأخرى[٢١]، واشتهرت طليطلة أيضاً بمعدنيّ الحديد والنحاس، إذ استخرجا من جبال طليطلة بكميات وفيرة[٢٢]، وهذا أهّلها لإنشاء صناعة عسكرية ومدنية نظراً لتوافر هذين المعدنين وتوافر الخبرات الفنية لاستخراجهما واستغلالهما في الصناعة، وقد برع الطليطليون بشكل خاص والأندلسيون بشكل عام في صناعة السروج واللجامات والمغافر، واشتهروا بصناعة الأسلحة وتصديرها ولا سيّما صناعة المِقبض والغمد، بالإضافة إلى صناعة السيوف والخناجر والدروع والتروس والرّماح والسكاكين[٢٣]، وإن أكثر همم أهل الأندلس كانت متجهة إلى هذا المجال. وما ينطبق على طليطلة وأهلها ينطبق على الأندلسيين في بقية المناطق والمدن الرئيسة فيها.

ولهذا يمكن القول إن الأندلس إبّان العصر الإسلامي كانت متقدّمة في الصناعات العسكرية، وخاصة المتعلقة منها بالأفراد والقوات البريّة والفرسان، ونتيجة لهذا التقدّم فقد كانت لأهل الأندلس اليد الطولى في مجالات الحضارة والقوة العسكرية.

---

(٢٠) المقّري، نفح، جـ١، ص٢٠١.

(٢١) ابن حوقل، ص١١١؛ المقّري، نفح، جـ١، ص٢٠١.

(٢٢) الإدريسي، صفة، ص١٨٨؛ الحميري، ص١٣٣.

(٢٣) المقّري، نفح، جـ١، ص١٦٢، ٢٠٢.

سقوط الحكم الأموي في الأندلس

تولّى هشام بن الحكم بن عبدالرحمن الناصر (الخلافة) وهو صبي لم يبلغ الحُلم، ولم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، مع وجود الأكفاء من أعمامه أو من أفراد الأسرة الأموية الحاكمة[٢٤]، بالإضافة إلى وجود العديد من الشخصيات القيادية ممّن يستطيعون القيام بأعباء السلطة، ولكنّ حبّ الاستئثار بالسلطة وتوريثها للأبناء والحفدة دون باقي أفراد العائلة أو مخافة انتقالها إلى أحد أفراد الرعية، دفع الحكم المستنصر إلى تعيين ولده الصبيّ وليّاً للعهد ـ ولم يعش الحكم المستنصر بعد ذلك طويلاً، فقد غادر الدنيا تاركاً هذه الأمانة الكبرى أمانة تحّمل مسؤولية الأمّة ومستقبل البلاد بين يدي غرّ يتحكم في تفاصيل حياته اليومية والدته صبح وهي محظية والده، ومن بعدها المربّون والمعلمون الذين اختارتهم على علم لتربيته وتعليمه ـ فماذا يتوقع من غرّ صبيّ أن يصدر عن أفعال تتعلق بمستقبل البلاد ومصير الأمّة إذا كانت طفولته قد اتصفت بالميوعة ولم يُنشّأ تنشئة الرجال وقد علمنا ما كان من تدّخل المحظيات والجواري وأمّهات الأولاد في تصريف شؤون الحكم والدولة، إذ لعبن دوراً خطيراً في الحياة العامة حينما كانت مهنتهنّ الرئيسة التي يتقنّها ويتفننّ فيها صناعة الأمراء والخلفاء والقادة والعظماء، فكان عهد ذلك الصبيّ هو نقطة البداية في انهيار الأندلس، ثم القضاء على الوجود العربي في تلك المنطقة من العالم، وقد تسلّم الخليفة الطفل مقاليد الحكم عام ٣٦٦هـ بمساعدة المنتفعين والمستفيدين من هذا الوضع كي يحافظوا على نفوذهم، بل ويحققوا مكاسب جديدة أخرى، وهذا لم يكن ليتحقق لهم مع وجود شخصية قويّة كشخصية المغيرة بن عبدالرحمن الناصر عمّ (الخليفة الصبي) والذي كان مرشّحاً لهذا المنصب، ولكنّ المصالح الشخصية والهوى كل ذلك دفع بهشام الصبي إلى كرسي الحكم واغتيال عمّه، ومثل هذه التصرفات والسلوك، أدّت في النهاية إلى تدهور أوضاع البلاد، والقضاء على الوجود الإسلامي نهائياً فيها، وساعد في ذلك ظهور شخصيات

(٢٤) انظر ابن عذاري المرّاكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر وتحقيق: س. كولان و أ. ليفي بروفنسال، جـ٢، ليدن، هولندا، ١٩٥١م، ص٢٥٣ وما بعدها.

كالحـاجب المصحفي، ومحمـد بن أبي عامر وولديه، ومَنْ تأسّى به من حكّام دويلات الطوائف كبني ذي النون وبني عبّاد وبني رزين وأخيراً بني الأحمر.

أقدم عبدالرحمن بن محمّد بن أبي عامر على اتخاذ خطوة كانت في غاية الخطورة على مستقبل السلطة الأموية في الأندلس، وذلك بإجباره (الخليفة) الأموي هشام بن الحكم (المؤيّد) ـ المحجوب عن الرعية وعن إدارة الحكم ـ على إصدار قرار يقضي بتعيينه وليّاً لعهد المسلمين، ـ أي خليفة له ـ في عام ٣٩٩هـ[٢٥]، ممّا كان له أسوأ الأثر في نفوس بني أميّة وبعض قادة الدولة الأخرين، لذا أوجد ذلك الفعل دافعاً ومبرراً قويّاً لدى الكثيرين منهم للإطاحة بأسرة محمد بن أبي عامر[٢٦]. الذي كان له دور رئيس في إضعاف مركز الخلافة، من خلال استئثاره بتسيير شؤون الدولة والحكم، وبقي الحال على ما هو عليه إلى أن توفّي محمـد بن أبي عامـر عام ٣٩٢هـ[٢٧]، واستمـرّ هذا الـوضع بعد أن تولّى عبدالملك بن محمـد بن أبي عامـر الحكم حتى عام ٣٩٩هـ، وظـلّ الوضع قائماً في عهد ابنه الثاني

---

(٢٥) انظر ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، جـ٣، نشر: أ. ليفي بروفنسال، باريز، ١٩٣٠م، ص٣٨، ٣٩، ٤٢، ٤٣، ٦٦؛ ابن سعيد، جـ١، ص٢١٣.

(٢٦) ابن الكردبوس، أبو مروان عبدالملك بن الكردبوس التوزري، تاريخ الأندلس، وهو قطعة من كتاب (الاكتفـاء في أخبار الخلفاء)، (أحمد مختار العبّادي، نصّان جديدان)، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، م: ١٣، مدريد، ١٩٦٥-١٩٦٦م، ص٦٧؛ ابن عذاري، جـ٣، ص٣، ٣٨، ٤٣؛ ابن الخطيب، الوزير لسان الدين محمد بن عبدالله السلماني الغرناطي، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، (وهو الجزء الخاص بتاريخ أسبانية الإسلامية (الأندلس))، تحقيق وتعليق: أ. ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦م، ص٨٣، ٨٩؛ ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون المغربي، العِبر وديوان المبتدأ والخبر في أيّام العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، م: ٤، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٨م، ص٣١٧، ٣٢١، ٣٢٣-٣٢٤.

(٢٧) الحميدي، أبو عبدالله محمد الأزدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، مطابع سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٦م، ص١٧؛ الضبّي، أحمد بن يحيى بن عميرة، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م، ص٢١؛ ابن الكردبوس، م: ١٣، ص٦٢؛ ابن سعيد، جـ١، ص١٩٩، ٢٠٢؛ النويّري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: د. أحمـد كمـال زكي، مراجعـة د. محمد مصطفى زيادة، جـ٢٣، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٨٠م، ص٤٠٤، ٤٠٦؛ أبو ملّوح، ص٣٢٣.

عبدالرحمن بن محمد بن أبي عامر حتى عام ٣٩٩هـ[٢٨]، إذ بقيت أُسرة محمد بن أبي عامر مستأثرة بالحكم دون الخليفة هشام بن الحكم، إلى أن أقدم عبدالرحمن بن أبي عامر على استصدار قرار من المؤيد بتعيينه وليّاً للعهد من بعده عام ٣٩٩هـ[٢٩]، على إثر ذلك قام محمد بن هشام بن عبدالجبار بن الناصر بإعلان الثورة في قرطبة، مستغلاً الفرصة التي سنحت له بوجود عبدالرحمن بن محمد بن أبي عامر في إحدى غزواته في منطقة طليطلة متجهاً إلى حرب الجلالقة، فلمّا وصلت أخبار الثورة في قرطبة إلى عبدالرحمن بن محمد بن ابن عامر عاد إليها مسرعاً، إلّا أن الجند الذين كانوا معه انفضّوا عنه وتركوه يواجه مصيره، حيث لقي مصرعه[٣٠]، فصار الأمر لمحمد بن هشام بن عبدالجبار حيث أعلن نفسه خليفة بعد خلع هشام بن الحكم في شهر جمادى الأولى من عام ٣٩٩هـ[٣١].

بعد هذه الأحداث تواصلت سلسلة الصراعات الداخليّة في البيت الأُموي، وبالذات في ذريّة عبدالرحمن الناصر، للاستحواذ على مقاليد الحكم، بين متولٍّ للأمر، وقائم بالثورة على الحاكم، من خلال اعتماد الثائر أو المخلوع على بعض القوى في قرطبة أو في طليطلة[٣٢]، وتعدّى الأمر ذلك إلى محاولة الاستنصار بالممالك المسيحية في شمال شبه الجزيرة الايبيرية، مقابل تنازلات كان يقدمها المستعينون بتلك الممالك كما حدث في الفترة الممتدة من عام ٣٩٩-٤٠٣هـ[٣٣].

---

(٢٨) الحميدي، ص١٧؛ الضبّي، ص٢١؛ ابن عذاري، جـ٣، ص٣-٤، ٣٧، ٣٨؛ النويّري، جـ٢٣، ص١٠٩-١١٠؛ ابن الخطيب، ص٨٣، ٨٩.

(٢٩) انظر ابن عذاري، جـ٣، ص٣٨، ٣٩، ٤٢، ٦٦؛ النويّري، جـ٢٣، ٤٠٧-٤٠٩؛ ابن الخطيب، ص١٠٩-١١٠.

(٣٠) ابن عذاري، جـ٣، ص٤٨-٥٠، ٧٢-٧٣؛ النويّري، جـ٢٣، ص٤١٠-٤١٤؛ ابن الخطيب، ص٩٦، ٩٧-٩٨؛ ابن خلدون، م: ٤، ص٣٢٤.

(٣١) الحميدي، ص١٧؛ الضبّي، ص٢١؛ ابن الأبّار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي البلنسي، الحلّة السيراء، تحقيق وتعليق: د. حسين مؤنس، جـ٢، ط١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٥؛ ابن عذاري، جـ٣، ص٥٩؛ النويّري، جـ٢٣، ص٤١٢-٤١٣؛ ابن الخطيب، ص١١٠-١١١؛ ابن خلدون، م: ٤، ص٣٢٤.

(٣٢) انظر ابن عذاري، جـ٣، ص٤٩-٥٩، ٧٩-٨٢، ٨٣، ٨٤-٨٥، ٨٨-٨٩، ٩٣، ١٠٠-١٠١؛ وانظر أبو مَلّوح، ص٣٢٤ حاشية رقم (٤).

(٣٣) انظر أبو ملّوح، ص٣٢٤-٣٢٧.

وبهذا تكون مؤسسة الخلافة في الأندلس قد وصلت إلى مستوى هابط، فبعد أن كانت تتدخل في الصراعات الداخلية في الممالك المسيحية كما كان الأمر في عهد الخليفتين عبدالرحمن الناصر والحكم المستنصر[٣٤]، انعكس الأمر في بداية القرن الخامس الهجري بقيام الخلفاء الثائرين أو المخلوعين أو القائمين على أمور الحكم في الأندلس بالاستنجاد والاستنصار بقادة الممالك المسيحيّة في الشمال، الأمر الذي انعكس سلباً على قوّة الدولة الأموية في الأندلس وعلى المسلمين فيها أيضاً، إذ أن مرحلة الضعف التي سادت الأندلس نتيجة تلك الأحداث ساعدت على تردّي أوضاع المسلمين في تلك البقعة من العالم، وتفكيك عرى تماسكهم، في حين قابل هذا الوضع في الجانب المقابل زيادة قوّة الممالك المسيحية ونفوذها في شبه الجزيرة الايبيرية، من خلال الاستفادة من الصراع والتنافس الذي كان سائداً داخل صفوف المسلمين في الأندلس[٣٥].

عصر الانقسام ونشوء دويلات الطوائف :-

لم يبق الصراع على منصب الخلافة في قرطبة مقتصراً على البيت الأموي بل إن عنصراً آخر دخل إلى حلبة الصراع، فبنو حمّود المتحدرين من الأدارسة الذين يرجعون بنسبهم إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما[٣٦]، نافسوا بني أميّة على تولّي الخلافة خلال الربع الأول من القرن الخامس الهجري، فالفترة الممتدّة من سنة ٤٠٧هـ - ٤١٤هـ،

---

(٣٤) انظر ابن عذاري، جـ٢، ص٢٣٥، ٢٩٦-٢٩٧؛ ابن خلدون، م:٤، ص٣٠٧، ٣٠٨، ٣١٤-٣١٥؛ المقّري، نفح، جـ١، ص٣٨٤-٣٨٥، ٣٨٨-٣٩٣؛ المقّري نفسه، أزهار الرياض في أخبار عياض، ضبط وتحقيق وتعليق: مصطفى السقا وآخرون، جـ٢، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م، ص٢٨٩.

(٣٥) ابن عذاري، جـ٣، ص٢٣٨، ٢٣٩.

(٣٦) الحميدي، ص١٩، ٢٠؛ الضبّي، ص٢٥، ٢٧؛ ابن الأثير، الشيخ عزالدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، الكامل في التاريخ، جـ٩، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م، ص٢٦٩؛ المرّاكشي، محي الدين بن محمد بن عبدالواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين، تحقيق: الأستاذ محمد سعيد العريان، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، القاهرة، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م، ص٩٠؛ ابن الأبّار، الحلّة، جـ٢، ص٢٦٩؛ ابن عذاري، جـ٣، ص١١٩؛ النويّري، جـ٢٣، ص٤٣١؛ ابن الخطيب، ص١٢٨.

شهدت اعتلاء رجال منهم لمنصب الخلافة، وتنافسوا مع بني أُميّة على الخلافة في قرطبة إلى أن دحروا عنها نهائياً عام ٤١٧هـ، واحتفظوا بمالقة والجزيرة الخضراء وقرمونة كمناطق تخضع لخلافتهم(٣٧). بعد ذلك تمّت إعادة الخلافة إلى البيت الأُموي، وبقي الأمر فيهم حتى عام ٤٢٢هـ(٣٨)، وقيل إن ذلك بقي حتى عام ٤٢٤هـ(٣٩)، حيث انتهى وجود مؤسسة الخلافة في الأندلس رسمياً، والتي كانت موجودة في قرطبة، إذ كانت تعتبر مركز الحكومة المركزية للأندلس، ومنها تتحكم في إدارة وتسيير جميع الأُمور في المناطق الخاضعة لسلطان المسلمين في الأندلس.

في ظلّ هذه الظروف المتردية، أخذ كل قائد متنفذ أو أُسرة متنفذة في منطقة من المناطق الأندلسية في الاستقلال كليّاً عن قرطبة، وإدارة أُمور المناطق التي تخضع لسلطان ذلك القائد، أو سلطان تلك الأُسرة، كما حدث في قرطبة، إذ أن مقاليد الأُمور فيها صارت لرئيس الجماعة أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور، وادّعى أنه يقوم بالحكم حتى تتفق الكلمة على رجل من أولي الشأن(٤٠)، كما أن القاضي محمد بن إسماعيل وذريّته من بعده من بني عبّاد استقلّوا بإشبيلية(٤١)، واستقلّ بنو هود في مناطق الثغر الأعلى في سرقسطة

---

(٣٧) الحميدي، ص٢٠، ٢٥، ٢٧؛ الضبّي، ص٢٧-٣٠، ٣٣-٣٤؛ ابن الأثير، جـ٩، ص٢٧١-٢٧٥، ٢٧٨؛ المرّاكشي، ص٩١، ٩٨-١٠٠، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٥؛ ابن عذاري، جـ٣، ص١٢٠، ١٣٤، ١٤٣-١٤٥؛ النويّري، جـ٢٣، ص٤٣١-٤٣٤؛ ابن الخطيب، ص١٢١-١٣٨؛ ابن خلدون، م: ٤، ص٣٢٨، ٣٢٩؛ المقّري، نفح، جـ١، ص٤٣٠، ٤٣١-٤٣٢.

(٣٨) ابن الأثير، جـ٩، ص٢٨٣؛ ابن عذاري، جـ٣، ص١٤٥، ١٥٢، ١٥٥؛ ابن الوردي، زين الدين أبو حفص عمر بن مظفر، تتمة المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي)، إشراف وتحقيق: أحمد رفعت البدراوي، جـ١، ط١، دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م، ص٤٩٧؛ ابن خلدون، م: ٤، ص٣٣٠، وانظر ابن سعيد، جـ١، ص٥٥ فقد ذكر أن الدولة الأُموية انتهت في الأندلس سنة ٤٢٠هـ.

(٣٩) ابن الأثير، جـ٩، ص٢٨٤ ذكر أنه (قيل) إن نداء أُعلن في قرطبة أن لا يبقى أحد من بني أُميّة فيها سنة ٤٢٤هـ، وعلى أثر ذلك انحلّ عقد الجماعة وافترقت البلاد؛ النويّري، جـ٢٣، ص٤٣٨.

(٤٠) ابن عذاري، جـ٣، ص١٨٥؛ ابن الأثير، جـ٩، ص٢٨٤-٢٨٥؛ ابن الوردي، تتمّة، م: ١، ص٤٩٧.

(٤١) مؤلف مجهول، ذيل مشتمل على نص بعض أوراق من تاريخ مبتور الأوّل والآخر ومجهول الاسم والمؤلف في أخبار دول ملوك الطوائف بجزيرة الأندلس، الملحق بالجزء الثالث من كتاب البيان

ولاردة[42]، أما طليطلة فقد تولّى السلطة فيها عدد من القادة، إلى أن صار الأمر فيها إلى بني ذي النون الذين قدموا إليها من منطقة مجاورة[43]، وهناك العديد من الأفراد والأسر التي سيطرت على بقيّة المناطق الأندلسية[44]، كبني رزين في شنتبرية

المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، لابن عذاري، نشر: أ. ليفي بروفنسال، باريز، ١٩٣٠م، ص٣١٤-٣١٥؛ المرّاكشي، ص١٢٦؛ ابن الأثير، جـ٩، ص٢٨٥؛ أبو ملّوح، ص٣٣٠.

(٤٢) ابن عذاري، جـ٣، ص١٧٨-١٧٩، ٢٢١؛ ابن الخطيب، ص١٧٠-١٧١.

(٤٣) ينتسب بنو ذي النون إلى قبيلة هوّارة البربرية وقد استوطنوا شنتبرية الشرق، ثم تغلّب الظافر إسماعيل بن عبدالرحمن بن سليمان على حصن أفلنتين سنة ٤٠٩هـ، وبقي كذلك إلى أن تمكن من بسط سلطته على طليطلة بعد الصراع الدامي بين العديد من قياداتها المحليّة: ابن خلدون، م: ٤، ص٣٤٧؛ ابن الخطيب، أعمال، ص١٧٦، ١٧٧؛ وانظر أبو ملّوح، ص٣٣١-٣٤٦، ٣٥١-٣٥٣؛ وقال ابن حيان في الذخيرة: «وكانت أوّليّة بني ذي النون من جدّهم ذي النون، في أيام الأمير عبدالرحمن. وقد اعتلّ له خصيّ في طريق قفوله من الثغر فتركه عنده بحصن أقليش يمرّضه، فلمّا أفاق لحق بالحضرة مع الخصيّ، فأخذ له توفيقاً بتقديمه على حصنه. ثم تداول تلك الخطّة ولده إلى أيّام الحكم. فلمّا اضطلع بالدولة ابن أبي عامر: تعلّق به المضراس بن ذي النون وإسماعيل ابنه معه. فلمّا انقرضت الدولة العامرية لحق بالثغر، وجمع إليه بني عمّه، وخطب من سليمان ولاية أقليش فولاّه إيّاها، ثم تهيأت له قلعة كونكة وكانت بيد واضح العامري، فلمّا مات ضبطها إسماعيل منتظراً بزعمه مَنْ يجتمع عليه الناس، وتحت ذيله من غلول واضح كثير، حين لم يترك إلاّ أطفالاً وأمّهم.. فحصل لإسماعيل البلد. وسطا على مجاوريه من قوّاد الثغور، فاستقامت له الأمور. وثنى له الوزارة سليمان وسمّاه ناصر الدولة. فاستقلّ ذلك كلّه، وآثر الفُرقة، واقتطع جانبه، فكان أوّل الثوار لمفارقة الجماعة، وفرطهم في نقض الطاعة... وكثرت جبايته وجمعه. وكان من البخل بالمال، والكلف بالإمساك، والتقتير في الإنفاق، بمنزلة لم يكن عليها أحد من ملوك عصره. لم يرغب في صنيعه.. ولا حملت أحداً نحوه ناقة، ولا عرّج عليه أديب ولا شاعر، ولا امتدحه ناظم أو ناثر، ولا أُستخرج من يده درهم في حق ولا باطل...» انظر ابن بسام، الذخيرة، ق: ٤، م: ١، طبعة: ١٩٤٥م، ص١١٠-١١١؛ وانظر ابن سعيد، جـ٢، ص١١-١٢. وكان إسماعيل هذا ينال من السلف الصالح، فقد قال: إن أحق الناس بالملك «مَنْ استقلّ به. والله ما أُولّي غير نفسي، ولا أقوم إلاّ بسلطاني، ولو نازعنيه فلان وفلان - وذكر السّلف الصّالح الذين كرّم الله ذكرهم - لضربتهم دونه بسيفي ما استمسك بيدي..» انظر ابن بسام، المصدر نفسه، ص١١٢؛ وأشار إلى ذلك ابن سعيد، جـ٢، ص١٢.

(٤٤) انظر ابن عذاري، جـ٣، ص١٥٦، ١٥٨-١٦٥، ١٦٦-١٦٧، ٢٣٦، ٢٤٠؛ ابن الخطيب، ص١٨٣، ١٨٩-١٩٠، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢١٠، ٢٢٧، ٢٣٠؛ ابن الأثير، جـ٩،

الشـرق[٤٥]، وعرفت هذه الفترة الزمانية في الأندلس بفترة دول الطوائف[٤٦]، وبهذا تكون الـوحـدة السياسية التي كانت تربط الأجـزاء الأنـدلسية قد تلاشت بعد أن تفككت الدولة الأموية، فصارت مزقاً متناثرة ودويلات صغيرة متناحرة فيما بينها، إذ لم يعد لها ذلك الجيش الواحد الذي كان يحافظ على مصالحها ويدافع عنها، فتعددت الجيوش وكثر القادة بعد أن كان للأندلس قائد واحد، وإدارة واحدة تسيّر وتشرف على جميع نواحي الحياة في البلاد، كما أن مدناً برزت كعواصم تتبعها مناطق تدور في فلكها، وغدت كل دويلة يحكمها حاكم يدبّر أمورها، فيعلن الحرب والسلم، ويبرم المعاهدات متى شاء وكيف أراد، وهذا بطبيعة الحال ينطبق على الوضع السياسي في طليطلة، فهي كمثيلاتها من المناطق الأندلسية التي استقلّت عن السلطة المركزية في قرطبة منذ عهد الاضطرابات التي شهدتها مع بداية القرن الخامس الهجري.

الكيفية التي أدار بها بنو ذي النوي شؤون الحكم في دولتهم:-

أصبحت طليطلة إبّان العهد النوني عاصمة للدولة الطليطلية، فكانت مقرّاً للرجل الأول في الدولة، ولبقية قادة ورجالات الحكومة، من ذوي المناصب السياسية والإدارية والقضائية والعسكرية العليا، أمّا السلطة السياسية في هذا العهد فقدْ كانت تتكون من رأس الدولة، الـذي كان من بني ذي النـون، وتلقب رؤوس الدولة الطليطلية بالألقاب السلطانية بدءاً بإسمـاعيل بن ذي النـون الـذي لقّب نفسـه بالظافر، كما أن (الخليفة) الأموي سليمان المستعين (٤٠٣-٤٠٧هـ) قد خلع عليه لقب (ناصر الدولة)[٤٧]، أمّا الحكام الذين تولّوا

ص٢٨٨، ٢٩١؛ ابن الوردي، تتمّة، جـ١، ص٤٩٨؛ وانظر ابن خلدون، م:٤، ص٣٣٦ وما بعدها.

(٤٥) انظر ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: د. إحسـان عبـاس، ق:٣، م:١، ط٢، دار الثقـافـة، بيروت، لبنـان، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص١٠٩-١٢٤؛ ابن الكردبوس، م:١٣، ص٧١، ٧٥، ٨٨؛ انظر ابن سعيد، جـ٢، ص٤٢٧؛ انظر ابن عذاري، جـ٣، ص١٨١-١٨٢؛ وانظر ص٣٠٧-٣١١ الذيل الملحق بالمصدر نفسه.

(٤٦) ابن بسام، ق:١، م:١، جامعة فؤاد الأول - كلية الآداب، القاهرة، ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م، ص٢٥؛ ابن الكردبوس، م:١٣، ص٧٨ وأُطلق على هذه الفترة أيام الفرق، ابن الأثير، جـ٩، ص٢٨٤؛ المرّاكشي، ص١٤٧؛ ابن عذاري، جـ٣، ص١٥٣؛ ابن الخطيب، ص١٤٤.

(٤٧) ابن بسام، ق:٤، م:١، ط١٩٧٩م، ص١٤٢، ١٤٣ وورد اسم إسماعيل في عدد من المصادر

الحكم من بعده، فقد اتخذوا ألقاباً منها المأمون الذي تلقب به يحيى بن إسماعيل بن ذي النون، ومنها القادر بالله الذي تلقب به يحيى بن إسماعيل بن يحيى المأمون[48]، وكان يساعد الحاكم في إدارة البلاد مجموعة من الوزراء والقضاة والقادة، لكنّ أسرة بني ذي النون كانت أعلى سلطة تنفيذية في الدولة، الأمر الذي أكّد سيادتهم داخل حدود الدولة الطليطلية، فأوّل مَنْ حكم مدينة طليطلة من بني ذي النون كان إسماعيل بن عبدالرحمن[49]، أما الذين تعاقبوا على حكمها من بعده فأوّلهم ابنه يحيى بن إسماعيل[50]، الذي تولّى الحكم عام ٤٣٥هـ[51]، وقيل إن ذلك تم عام ٤٢٩هـ[52]، ثم خلفه في الحكم حفيده القادر بالله يحيى بن إسماعيل بن يحيى عام ٤٦٧هـ[53]، وتقلّد بنو ذي النون بعد إسماعيل الحكم عن طريق الوراثة بانتقالها من السلف إلى الخلف، وذلك بإقرار الناس هذا الاختيار عن طريق البيعة وتجديدها لوليّ العهد، فتصبغ هذه البيعة الحكم الجديد بالشرعيّة.

أما أُسلوب الحكم الذي سار عليه بنو ذي النون في إدارة الحكم الطليطلي، فقد ذُكر أن إسماعيل بن ذي النون كان لا يقطع رأياً دون مشاورة مشيخة وكبار رجالات طليطلة. ومن

مقروناً بلقب الظافر: انظر ابن سعيد، جـ٢، ص١١؛ ابن خلدون، م: ٤، ص٣٤٧؛ القلقشندي، صبح، جـ٥، ص٢٥٢.

(٤٨) ابن بسام، ق: ٤، م: ١، ص١٤٥؛ ابن بسام، ق: ٣، م: ١، ص٩٢؛ ابن الأبّار، الحلّة، جـ٢، ص١٧٧؛ ابن سعيد، جـ٢، ص١٢، ١٣؛ مؤلف مجهول، ذيل، ص٣٠٤؛ النويّري، جـ٢٣، ص٤٤١، ٤٤٢؛ ابن الخطيب، ص١٧٨، ١٧٩؛ القلقشندي، صبح، ج٥، ص٢٥٢؛ ابن خاقان، الوزير الكاتب أبو نصر الفتح بن محمد، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، دراسة وتحقيق: محمد شوابكة، ط١، دار عمّار، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١٧٤، ١٧٥.

(٤٩) انظر أبو ملّوح، ص٣٤٨، ٣٥١-٣٥٣.

(٥٠) ابن سعيد، جـ٢، ص١٢؛ ابن عذاري، جـ٣، ص٢٧٧؛ النويّري، جـ٢٣، ص٤٤١؛ ابن الخطيب، ص١٧٧؛ ابن خلدون، م: ٤، ص٣٤٧.

(٥١) ابن سعيد، جـ٢، ص١٢ (قول ابن غالب)؛ النويّري، جـ٢٣، ص٤٤٠.

(٥٢) ابن خلدون، م: ٤، ص٣٤٧؛ القلقشندي، صبح، جـ٥، ص٢٥٢.

(٥٣) ابن الأبّار، الحلّة، جـ٢، ص١٧٧؛ ابن الخطيب، ص١٧٨؛ ابن خلدون، م: ٤، ص٣٤٧؛ القلقشندي، صبح، جـ٥، ص٢٥٢.

أبرز هؤلاء أبو بكر بن الحديدي الذي كان يوصف بالعلم والدهاء(٥٤)، ومحمد بن مغيث الذي كان مقدماً في الشورى. في عهد إسماعيل وابنه المأمون(٥٥). كما ذُكر أن أحمد بن محمد بن مغيث الصدفي الطليطلي، المتوفى سنة ٤٥٩هـ، كان يحضر الشورى(٥٦) وهذا يعني أنه كان من المستشارين في عهد المأمون يحيى بن إسماعيل، نظراً لأن حكم المأمون امتدّ من عام ٤٣٥-٤٦٧هـ، الأمر الذي يشير إلى أن هناك مجلساً في الدولة الطليطلية كان مخصصاً لإبداء المشورة والرأي في بعض الأمور المهمّة. ومن هذه الإشارات يمكن القول إن إسماعيل وابنه المأمون يحيى كانا يأخذان رأي أهل الرأي في الدولة وخاصة إنّهما اعتمدا على مشورة ابن الحديدي مما كان له دور أساس في تثبيت قواعد الحكم وأركانه وهذا يشير إلى أن الأسلوب الذي سلكه بنو ذي النون في حكم طليطلة لم يكن حكماً استبدادياً مطلقاً، نظراً لطبيعة طليطلة وتركيبتها الاجتماعية وعنفوانها مع وجود شخصيات بارزة فيها(٥٧)، إذ لا بد لمن كان يريد أن يستمرّ في حكمه وينجح في مهمته القيادية العالية أن لا يهمل تلك المعطيات وعليه أن يتعاون مع أولي الشأن فيها، في ترتيب البيت الطليطلي، وإلاّ حدث معه ما حدث لغيره كقادة طليطلة - إبّان عهد الفوضى والاضطراب الذي سبق عهد بني ذي النون - الذين سقطوا بسبب الخلافات والنزاعات الداخلية(٥٨). وممّا يعزز هذا القول ما حدث بين القادر يحيى بن ذي النون وابن الحديدي؛ إذ أن أعداداً كبيرة من العامّة والخاصة في طليطلة هبّوا لنصرة ابن الحديدي، والوقوف إلى جانبه، عندما تسرّبت إلى مسامعهم معلومات عن عزم القادر التخلص منه، ولولا انحناء ابن ذي النون للعاصفة لحدث ما لم تحمد عقباه بالنسبة له. ولم ينجح القادر

---

(٥٤) واسمه هو: سعيد بن سعيد الحديدي التجيبي الطليطلي تولّى القضاء في عهد المأمون يحيى بن ذي النون وظلّ في عمله ذلك إلى أن توفي المأمون عام ٤٦٧هـ. وفترة من عهد حفيده ثم... ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبدالملك، الصلة، ق:١، مطابع سجل العرب، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٢٢٣؛ ابن عذاري، جـ٣، ص٢٧٧؛ ابن الخطيب، ص١٧٧.

(٥٥) ابن بشكوال، ق:٢، ص٥٢٣.

(٥٦) المصدر نفسه، ق:٢، ص٦١.

(٥٧) ابن بسام، ق:٤، م:١، ص١٥١. إذ إن ذلك يفهم من خلال ذكره للمحاولة الفاشلة التي استهدفت الإطاحة بحكم المأمون، حيث اتضح وجود تلك الشخصيات، وأنّها لم تكن راضية عن حكم بني ذي النون؛ وانظر أبو ملّوح، ص١٩٦، ٢١٠، ٣١٤-٣١٥، ٣١٨.

(٥٨) أبو ملّوح، ص٣٣٣-٣٣٤، ٣٣٩-٣٤١، ٣٤٥-٣٤٧.

في التخلّص من خصمه ابن الحديدي لولا قيامه بتدبير مكيدة له، تمّ بواسطتها استدراجه إلى القصر دون أن يكون معه أحد من أنصاره، فقد رتب القادر إطلاق سراح عدد من السجناء من سجن وبذة عام ٤٦٨هـ، كانوا على عداوة مع ابن الحديدي - نظراً لكشفه مؤامرتهم واطلاع المأمون عليها خلال وجوده ببلنسية - فأدخلهم إلى المدينة بصورة سريّة مستعملاً أسلوب التمويه، إذ إنهم أُدخلوا بلباس النساء[٥٩]، فمكّنهم القادر بذلك من قتل ابن الحديدي بعد أن تركه بين أيديهم وخرج من مجلسه[٦٠] لأنه لا يطيق أن يرى الدم مسفوحاً في بلاطه. لذلك يمكن القول إن حكم بني ذي النون كان يعتمد بالدرجة الأولى على بني ذي النون أنفسهم، بالإضافة إلى استعانتهم بعدد من القادة البارزين لتصريف شؤون الدولة، ليتسنى لهم تعزيز قدرتهم على الإمساك بالأمور في الدولة الطليطلية وتسييرها كأيّة دولة أُخرى، فاتخذ حكّام بني ذي النون الوزراء والكتّاب والقضاة والقادة العسكريين لمساعدتهم.

ويمكن القول إن بعض الحكام قد يلجأون أحياناً إلى التخلص من بعض الشخصيات القيادية التي تبرز في المجتمع بشكل لافت للنظر، فيصبح وجودها خطراً على أولئك الحكام ومكانتهم، فيبادرون إلى التخلص منها بطرق وأساليب مختلفة، وغالباً ما تكون غير مباشرة، كإفساح المجال لأعداء تلك الشخصيات للتخلص منهم وتغييبهم عن الساحة كما فعل القادر برجل دولته القوي العزيز الجانب ابن الحديدي، الذي أحبّته العامة لدنّوه منهم، فقد مكّن القادر أعداء ابن الحديدي منه على الرغم من خدماته الكثيرة وفضله الكبير عليه وعلى جدّه المأمون، فقد كان له الفضل في تثبيت حكم المأمون حين كشف له المؤامرة التي دبّرها له أعداؤه، ومكّنه من حبسهم في سجن الحصن، لكن هذا الفضل الكبير الذي أوصل القادر نفسه إلى السلطة فيما بعد لم يشفع له عنده، فكانت منيّته على أيدي أولئك السجناء الذين أطلقهم ليثأروا لأنفسهم منه، تاركاً إيّاه وجهاً لوجه في مجابهة محسومة، فقد تمّت العملية هذه بسريّة تامة وسرعة كبيرة، وانسلّ القادر منسحباً من مكان الجريمة لأنّه لا يطيق رؤية الدم المسفوح يهراق على بلاطه.

هذه السياسة في الحكم، ليست بعيدة ولا غريبة عن السياسة التي اتّبعها ويتبّعها

---

(٥٩) ابن بسام، ق: ٤، م: ١، ص١٥١-١٥٤؛ ابن سعيد، جـ٢، ص١٣؛ ابن الخطيب، ص١٧٩.
(٦٠) ابن بسام، ق: ٤، م: ١، ص١٥٤-١٥٥؛ ابن الخطيب، ص١٧٩.

الحكّام في ذلك الزمان وفي كل زمان، حينما يلجأون إلى دفع الأضداد والخصوم للتخلص من بعضهم بعضاً، أو لمقارعة بعضهم بعضاً، بشتّى الوسائل والطرق، ويقفون هم على شرفات قصورهم ينظرون إليهم بازدراء وهم يقتتلون ويتقارعون على مكاسب آنيّة. . تارة، أو لنيل رضى الحاكم تارة أخرى، وتبعاً لذلك تجد الحاكم يصادر حريّة بعضهم ويضيق عليهم معيشتهم حيناً بينما يطلق حريات آخرين، ويقرّبهم منه في الوقت نفسه.

أثر مقتل ابن الحديدي على حكم القادر واقتراب نهايته:-

وردت إشارات متعددة تدلّ على أن ابن الحديدي كان له دور كبير مؤثّر في رسم المعالم السياسية التي انتهجها المأمون بن ذي النون ووريث عرشه القادر في بداية حكمه، والإشراف على تنفيذ تلك السياسة بدقة بالغة واهتمام كبير، ممّا جعل المأمون يحرص كل الحرص على علاقة طيّبة مع ابن الحديدي ويعزز الثقة به، خاصة بعد حادثة المؤامرة التي استهدفت حياة المأمون، وفضحها ابن الحديدي في الوقت المناسب حينما كان المأمون في بلنسية خدمة له وتملّقاً عنده، فأرسل إليه أن هلم فعاد على جناح السرعة، وتمكن من القضاء على المؤامرة ورؤوسها، وأودعهم سجن حصن وبذة، الأمر الذي رفع شأن ابن الحديدي عنده، فأوصاه بحفيده القادر (وليّ العهد) خيراً وأوصى القادر به[٦١].

وأوفى ابن الحديدي بالوصية وعمل بها، فهل وفّى القادر بتلك الوصيّة؟؟؟ وصية جدّه. . . أم حاد عنها؟ بل لقد خالفها، فكان مقتل ابن الحديدي على يديه وفي قصره، فماذا جرّ عليه هذا الفعل البشع من ويلات؟

بعد أن فقد القادر عمود حكمه الذي كان يستند إليه في كثير من المواقف ويسترشد به في الظروف الصعبة والأيام العصيبة، بدت عليه إشارات الاضطراب والتخبط في إدارة البلاد وتسيير شؤون العباد، وعندما سُمع بمقتل ابن الحديدي والطريقة التي قتل فيها عام ٤٧٢هـ، انفجرت ثورة شعبيه كانت خامدة سنين طويلة، فأجّجها مقتله، وخرج الناس إلى الطرقات والساحات بحركة عشوائية، فخشي القادر على نفسه منها، ففرّ هارباً إلى حصن وبذى المكان الذي نفذ فيه جريمته المنكرة، ولم يستطع العودة إلى عاصمة ملكه إلا بمساعدة القوات القشتالية، حيث اشترطوا عليه تسليم المدينة (طليطلة) العاصمة إلى

---

(٦١) ابن بسام، ق:٤، م:١، ص١٥١، وانظر ص١١٧، طبعة ١٩٤٥م.

مليكهم الفونسو السادس[٦٢] بعد إعادته إليها، ومقابل تعهّده لهم سرّاً بالتوقيع على معاهدة التسليم دون الاتفاق معهم على شروط تتعلق بأهل طليطلة، بعد تهيئة الأجواء المناسبة وتطمين النفوس المتوترة وخلق زعامات وقيادات شعبية زائفة تذلل له عملية التسليم تحت ظروف معقولة. أما المكافأة الكبرى التي سيكافأ عليها لقاء بطولته وكرمه البالغ وخدماته الجليلة لهم، فهي وعدٌ منهم بمنحه سلطة وحكماً ذاتياً على بلنسية مقابل تعهّده الخطّي بتقديم الأموال للفونسو السادس والحكم باسمه، وأن يكون تابعاً من أتباعه، وعاملاً من عمّاله، والالتزام التام بتنفيذ كل ما يُطلب منه.. لكن بلنسية أبت أن تخضع له فكان السبيل للوصول إليها الاستعانة بالقوات القشتالية التي نصّبته حاكماً على المدينة رغماً عن أنوف أهلها، فكان عبداً مطيعاً لسيّده الفونسو..

ظاهرة الاستقواء بالأجنبي أخطر ظاهرة سادت الأندلس في فترات دويلات الطوائف:-

بلغت عمليات الاستعانة والاستقواء بالقوى المعادية والطامعة المتربّصة بالأندلس وبأهلها، من الممالك النصرانية حدّاً أصبحت هي القاعدة والأصل، وفي مثل هذه الحالات أو الحالات والظروف المشابهة تقفز التساؤلات وتفرض نفسها على الباحث أو المتمعّن المعنيّ بها وبما يشبهها، ومن التساؤلات التي يجب أن تطرح هنا مثلاً هل يجوز الاستعانة بالقوى المعادية وفق ما تمليه المعتقدات أو ما يمليه الولاء للوطن والارتباط بترابه...؟! وهل أن الاستعانة بالدخلاء ستكون دون ثمن؟ وما هو مقدار ذلك الثمن وطبيعته؟ ولماذا كان الاستقواء؟ ولأية أسباب كانت الاستعانة؟ ولمصلحة مَنْ تمّت الاستعانة بالقوى المعادية والطامعة بالأمة والوطن؟ هل كانت تلك الاستعانة من أجل الشعب أم أنها كانت من أجل الوطن؟! وهل كان للأغراض الشخصية والمطامع السلطوية دور فيها؟ وهل الركون للغزاة المعتدين يعود أو سبق له أن عاد بكبير فائدة على المواطنين ومصالحهم وممتلكاتهم؟

إن من الأسباب التي أدت إلى الاستعانة بالقوى الأجنبية والرضى والقبول الشعبي بتلك الاستعانة، كان مردّها الظروف التي وصلت إليها البلاد عن قصد أو دون قصد بسبب ما كان

---

(٦٢) ابن بسام، ق: ٤، م: ١، ص١٦٢؛ وذكر ابن الخطيب أن القادر بالله بعد فراره من عاصمته راسل الفونسو، وطلب منه المساعدة، وقد أشار إلى سابق مساعدة جدّه المأمون للفونسو نفسه، عندما غلبه أخوه على المُلك، فق.م إلى طليطلة حيث عاش في كنف المأمون معززاً مكرّماً في قصوره: ابن الخطيب، أعمال،، ص١٨١.

يحدث في أوساطها، ويمور في ثناياها بطرق مباشرة أو غير مباشرة مثل: الانقياد وراء دعاة الانقسام والفُرقة، والرضى والقبول بالوصول إلى حالة الانقسام والاقتتال، والاستمرار عليها واستمرائها، والاتصاف بالجبن وترسيخه في واقع المجتمع مع سريان حالات اللامبالاة بما يجري في الوطن! فلذلك هل يمكن أن تُلقى تبعات الاستقواء والاستعانة بالقوى الأجنبية على كاهل الحاكم وحده؟ أم أن ما حدث يعتبر في حقيقته مسؤولية جميع أفراد المجتمع وفئاته وشرائحه، سواء أكان ذلك (نتيجة أو أثراً أو سبباً) في ذلك الوضع وتلك الحالة التي وصلت أو أُوصلت فيها الأُمور إلى ما وصلت إليه من الاستعانة بالقوى الأجنبية المتربّصة، والاستقواء بالغزاة الطامعين.

الصراع بين طليطلة وسرقسطة وأثره على الوجود الإسلامي في طليطلة . . . والأندلس:-

بعـد أن تجزأت الأندلس وأصبحت دويلات متعددة القيادات والجيوش والعواصم، ضعف شأن المسلمين في تلك البقعـة من المعمـورة، فبعـد أن كانت كل تلك القـوى والمقدّرات تصب في بوتقة واحدة تحت قيادة واحدة، تقسّمت وتبعثرت كل الجهود لدى مسلمي الأندلس، وبدل أن تُصوّب كل السّيوف والإمكانات المتاحة في وجه الأعداء أخذت توجّـه إلى صدور إخـوة الـدّين، في وقت كانت الأُمّـة بأمسّ الحاجة إلى تصويب تلك المقدرات نحو العدو المشترك الذي كان يتربّص بهم الدوائر، ولكن فيما يظهر إن الظروف التي كانت سائـدة، ثم وجـود ذلك النمط من الحكام والمحكومين لم تساعد على وقف مسلسل الخلافات والمنازعات الداخلية فيما بينهم، إذ إنهم لم يكونوا على درجة كافية من الإدراك والمسؤولية لوقف ذلك، وإحلال الوحدة والتكاتف بدل العداوات والفُرقة للوقوف في وجه الخطر المحدق بهم، الذي كان يهدد وجودهم جميعاً في ذلك الزمان والمكان، ولم يتعظ هؤلاء القـوم بمـا آلت إليه مصـائر الأُمم والأقوام السابقة التي كانت أحوالهم تشبه أحوالهم، فأخذ كل حاكم يعدّ العدة للصراع مع جيرانه الذين هم إخوانه في الدّين وأقرانه في المصير والتاريخ المشترك، سواء أكان ذلك الصراع لدرء خطر متوقع قادم من منافس أو للاستيلاء على ممتلكاته، أو للحدّ من قدرة ذلك الخصم وإضعافه، لكي لا يصبح خطراً عليه في المستقبل كما ظنّ أولئك الحكام، فنسوا الخطر الحقيقي أو تناسوه، وانغمسوا في صراعاتهم الداخلية، لذلك لا بدّ من ذكر بعض تلك الصراعات وخاصة المتعلقة منها في الصراع مع طليطلة، فسأحاول التعريف بالصراع الذي اندلع بين بني هود الذين كانوا حكاماً لسرقسطة والثغر الأعلى وبني ذي النون في طليطلة، وما رافق ذلك من استعانة كلا الطرفين

المتنازعين بقوات من الممالك النصرانية ضد الطرف الآخر.

نشب صراع دمــوي رهيب بين دويلات الـطوائف وفي مقـدّمتهـا كل من سرقسـطة وطليطلة، واستعـانـةُ كل دويلة منهمـا بدولـة من دولتي نافار (نبّره) وقشتالة ضد الأخرى واستغلت كلتا الدولتين الشماليتين الظرف (على أحسن وجه من الاستغلال) لمصالحهما، فقد حصّلتا الأموال الطائلة وقامتا بتدمير القوّة السرقسطية والطليطلية واستوليتا على مناطق وحصون من كلتا الدولتين المتحاربتين.

بدأ الصـراع بين بني هود وبني ذي النـون منـذ عام ٤٣٥هـ، ـ أي بعد وفاة الظافر إسماعيل بن ذي النون مؤسس دولة بني ذي النون في طليطلة ،وتولّي ولده المأمون يحيـى بن إسماعيل الحكم من بعده ـ، إذ من المؤكد أن سليمان بن هود استغل فرصة وفاة إسماعيل، ظانـاً أن الـوضـع في الـدولـة الـطليطلية أصبح أضعف ممّا كان عليه خلال حياة الظافر إسماعيل، نظراً لتبدّل الحاكم، إذ يحتاج الحاكم الجديد إلى فترة من الزمان لملء الفراغ الذي أحدثه فقدان الحاكم السابق حتى ولو كان أقرب المقربين إليه، فأقدم سليمان بن هود على إرسال جيش كبير بقيادة ولده أحمد بن سليمان للسيطرة على مدينة وادي الحجارة التي كانت تابعة لدولة طليطلة، إلّا إن فئة من أهلها كانت تميل إلى الانضواء تحت حكم ابن هود بدل حكم بني ذي النـون، في حين أن فئة أُخرى من أهل المدينة كانت تميل إلى استمرار حكم بني ذي النون لمدينتهم، وعندما وصل الجيش السرقسطي إلى أبواب المدينة نشب القتـال بين أنصار بني ذي النون والجيش السرقسطي، ولكن الأمر اختلف بالنسبة للفريق الثاني المؤيد لنبي هود داخل المدينة، فساعدوا الجيش للاستيلاء على المدينة، كل هذا حدث دون أن يكون عند يحيـى بن ذي النون علم بما جرى، وعندما علم بالخبر أعدّ جيشاً وسار بنفسه لملاقاة جيش ابن هود، والتقى معه في معارك كانت نهايتها لصالح ابن هود، الأمر الذي كان له أثره في ميزان القوّة بين الطرفين، ممّا حدا بالمأمون أن يتوجه إلى مدينة طلبيرة ويتحصن بها[٦٣]، وهذا يشير إلى أن جيش المأمون قد خسر المواجهة، كما يشير إلى توغّل الجيش السرقسطي إلى منطقة قريبة من عاصمة بني ذي النون.

استغلّت القـوات السـرقسطية الوضع وحاصرت الجيش الطليطلي بقيادة رجل الدولة الـطليطلية الأول داخـل المـدينـة، وشدّدت الحصار على المُحاصَرين، وكتب أحمد بن

(٦٣) ابن عذاري، جـ٣، ص٢٧٧ـ٢٧٨؛ ابن الخطيب، ص١٧٨.

سليمان إلى أبيه يعلمه بما تهيأ له، وفي ظل هذا الوضع الذي وصل إليه المأمون وقواته جاءه الفرج من قِبل رجل الدولة السرقسطية سليمان بن هود، الذي طلب العودة من ابنه أحمد قائد الجيش المحاصر لطليرة، فامتثل الابن للأمر، وعاد بقواته، وتنفّس المأمون بعد ذلك الصعداء من جراء فك الحصار[٦٤]، ولكن السؤال الذي يجول في نفس المتتبع لهذه الأحداث هو عن ماهيّة الأسباب التي دفعت سليمان بن هود، إلى اتخاذ ذلك القرار، أكان قراره خوفاً من أن يكون ذلك استدراجاً لقواته في أرض الدولة التي يخوض معها الحرب في منطقة بعيدة عن مراكز الإمدادات؟ الواقع يشير إلى أن المأمون قد خسر جولات القتال الأولى، وأنه فرّ من أمام القوات السرقسطية[٦٥]. أو أن هناك تحركات لجيوش معادية كالقوات النصرانية من دولة نبّرة (نافار) مثلاً قد بدأت بالاستعداد أو التقدم نحو الأراضي السرقسطية، الأمر الذي استلزم وجود كلّ القوات لدرء الخطر القادم، أو أن سليمان بن هود كان يدرك أن الحصار لن ينهي قوّة الدولة الطليطلية بتلك السهولة، لذلك قرر سحب تلك القوات قبل أن تقع في مأزق بعد قدوم إمدادات من العاصمة طليطلة لتلتقي القوات الطليطلية الجديدة مع القوات المُحاصَرة وتشكّلا معاً خطراً على القوات السرقسطية في أرض معادية لها؟ إذ من الممكن أن إمدادات جديدة قد بدأت تتحرك، وأن سليمان علم أو توقع تلك التحركات، فأراد سحب قواته وهي في حالة نصر قبل أن تنقلب الحالة إلى هزيمة فيضيع ما أنجزه، وتستعيد القوات الطليطلية مدينة وادي الحجارة، وربّما أن فصل الشتاء قد آن زمانه، الذي ربما سيكون عاملاً مساعداً للقوات الموجودة في داخل المدينة ضد القوات الموجودة خارجها في العراء، لذلك ولكلّ ما سبق أو لواحد منها كان اتخاذ سليمان بن هود قراراً بالانسحاب، والاكتفاء بما تحقق له من إنجازات.

إن ما لحق بالمأمون بن ذي النون من خسائر ماديّة ومعنوية على أيدي قوات ابن هود ورغبته في تحقيق نصر على أعدائه بسبب المهانة التي أُلحقت به، دفعه إلى الاستعانة بالقوات الأجنبية في الشمال الايبيري، وحثّهم على القيام بمهاجمة بلاد ابن هود، وتقديم المال لهم للقيام بذلك[٦٦]، ومن المرجح أن الاستعانة بهم كانت خلال فترة الحصار ممّا أجبر سليمان بن هود على اتخاذ قراره بسحب قواته المحَاصِرة لطلبيرة. وفعلاً تقدمت قوات

---

(٦٤) ابن عذاري، جـ٣، ص٢٧٨.

(٦٥) المصدر نفسه، جـ٣، ص٢٧٨.

(٦٦) المصدر نفسه، جـ٣، ص٢٧٨؛ وانظر أبو ملّوح، ص٣٦٤-٣٦٥.

الغزاة (الأعداء) في بلاد ابن هود، وعاثت خراباً ودماراً في بلاده مدّة شهرين، لم يستطيع خلالهما ابن هود مواجهة تلك القوات بل اكتفى بالتحصن داخل معاقله، تاركاً المجال أمام القوات المعادية أن تفعل ما تشاء، وممّا زاد الأمر سوءاً بالنسبة لابن هود ورعيّته، أن ذلك صادف أوان الحصاد وقطف الثمار. فاستغلّت قوات نبّره (القوات النصرانية) تلك الفرصة لتشنّ حرباً اقتصادية، فحشدت أعداداً من رعاياها لحصاد تلك المحاصيل ونقلها إلى بلادهم، واستمرّ ذلك شهرين كاملين، والمسلمون كانوا ينظرون لما يحدث ولا يملكون له دفعاً، وبعد ذلك عاد الأعداء إلى بلادهم بعد أن دمّروا اقتصاد دولة ابن هود المتمثّل في منتوج ذلك العام من المحاصيل والثمار(٦٧)، وموقف المتفرّج هذا الذي وقفه المسلمون أثناء تدمير وتخريب بلادهم والاستيلاء على خيراتهم عزّز وقوّى، العدوّ وكان ذلك دافعاً له إلى التفكير بالاستيلاء على بلاد المسلمين(٦٨).

لم يكتف المأمون بما فعلته قوات الأعداء بل إنه استغلّ الظرف المتمثّل في عدم قدرة ابن هود على القيام بشيء، فصال وجال في المناطق المحاذية لبلاده من بلاد ابن هود، ممّا زاد الأمر سوءاً بالنسبة لدولة سرقسطة(٦٩).

وما أن تنفّس سليمان بن هود الصعداء بعد رحيل قوات مملكة نبّرة (نافار) حتى سلك الطريق نفسه الذي انزلق إليه المأمون، وهو الاستعانة بقوات من الممالك النصرانية ضدّ الطرف الآخر، فلجأ في العام التالي(٧٠)، إلى طلب معونة فرديناند بن سانشو وقدّم إليه الهدايا والأموال مقابل قيامه بالهجوم على أشقائه في طليطلة، فاغتنم القشتاليون تلك الفرصة، وتقدّموا صوب المناطق التابعة لدولة طليطلة(٧١)، مخترقين أراضي الدولة الطليطلية الشمالية حتى منطقة وادي الحجارة وقلعة النهر (قلعة هنارس(٧٢))، وأمعنت تلك القوات في

---

(٦٧) ابن عذاري، جـ٣، ص٢٧٨؛ ابن الخطيب، ص١٧٨.

(٦٨) ابن عذاري، جـ٣، ص٢٧٨.

(٦٩) المصدر نفسه، جـ٣، ص٢٧٨.

(٧٠) ابن عذاري، جـ٣، ص٢٨٢؛ ابن الخطيب، ص١٧٨؛ أبو ملّوح، ص٣٦٦-٣٦٧.

(٧١) ابن عذاري، جـ٣، ص٢٧٩-٢٨٠.

(٧٢) عنان، محمد عبدالله، دول الطوائف منذ قيامها حتّى الفتح المرابطي، وهو العصر الثاني من كتاب دولة الإسلام في الأندلس، ط١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م، ص٩٨.

تخريب وتدمير المنطقة التي اجتاحتها، وعاودت الإغارة على تلك المناطق مرّات عديدة، حتى أن مسلمي الدولة الطليطلية لم يعودوا يستطيعون مواجهة القشتاليين إذا ما رأوهم، فيولّون أمامهم مدبرين إذا ما ظهروا، وقد نتج عن تلك العمليات العسكريّة التخريبية خسائر مادية فادحة لحقت بالمناطق الشمالية لدولة طليطلة، والتي أدّت بدورها إلى تهجير أعداد كبيرة منهم إلى العاصمة طليطلة طلباً للأمن(٧٣).

وساطة العلماء وأساليبهم فيها والنتائج التي أسفرت عنها!

دفع هذا الوضع المأساوي بالنسبة لمسلمي الدولتين، مجموعة من العلماء ومتنفذي طليطلة إلى التوجه إلى سليمان بن هود وحثّه على وقف هذا المسلسل الرهيب الذي أخذ في حصاد الأخضر واليابس في بلاد المسلمين، ووعظوه وبيّنوا له أن العداوة بين دولتي سرقسطة وطليطلة هي التي أوصلت الأوضاع إلى ما وصلت إليه، وخاصة زيادة قوة الغزاة الشماليين على حساب قوّة المسلمين ووجودهم، وشدّدوا عليه بطلبهم منه الدخول في صلح مع المأمون، الأمر الذي من شأنه أن يضعف آمال الأعداء في السيطرة على بلاد المسلمين، ويوقف الخراب والدمار اللّذَين نتجا عن الصراع فيما بينهما، فوافقهم على مطالبهم، فعادوا إلى أميرهم المأمون الذي كان على وشك إجراء اتفاق مع القوات الأجنبية لمحاربة ابن هود، فبيّنوا له ما توصّلوا إليه، فأجابهم إلى دعوتهم ورد القوات الأجنبية إلى ديارها(٧٤).

لكن سليمان بن هود لم يكن يبطن الموافقة على دعوة أهل طليطلة في إجراء المصالحة بين الدولتين السرقسطية والطليطلية كما أظهر ذلك للوفد الطليطلي، بل إن إظهاره الموافقة كان لخداع ابن ذي النون عمّا كان ينوي فعله، فاستنصر بنصيره ملك قشتالة وليون فرديناند الأول، واتجه بجيشه ومعه قوات من حلفائه (أو أعوانه أو أسياده) إلى مدينة سالم التابعة للدولة الطليطلية، فهاجمها ودارت المعركة بين الجيش الغازي وقوات المدينة، إلاّ إن الهزيمة كانت من نصيب أهل مدينة سالم، فقتل منهم مَنْ قتل، واتجه ابن هود بقواته إلى بعض الحصون التي كان المأمون قد استولى عليها، والتي كانت ملكيتها لدولة سرقسطة

---

(٧٣) ابن عذاري، جـ٣، ص٢٨٠.

(٧٤) المصدر نفسه، جـ٣، ص٢٨٠.

فاستردّها، وقام بإلحاق أكبر الضرر في المناطق التابعة لدولة طليطلة[٧٥]، وممّا ساعده على ذلك وجود شقيق المأمون المدعو عبدالرحمن بن إسماعيل الذي لجأ إلى دولة ابن هود بسبب اختلافه مع أخيه على الحكم، والذي قام بدوره بكشف مناطق الضعف في دولة بني ذي النون أمام ابن هود ممّا سهل الأمر عليه في حربه مع المأمون[٧٦]. ويتضح من هذه الحادثة ومثيلاتها مدى خطورة الخلافات الداخلية ـ في الأسرة الحاكمة ـ وانعكاساتها على الدولة والمجتمع والأسرة الحاكمة نفسها، وخاصة إذا كان اللاجىء مُلمّاً بأسرار الدولة وخاصة الخطيرة منها.

هذه الخدعة التي مرّرها ابن هود على ابن ذي النون جعلت الأخير يستشيط غضباً، ودفعه بالتالي إلى سلوك واتباع كل السّبل المتاحة للانتقام، ففتح خزائنه، وأرسل الكثير من أمواله وكنوزه إلى غرسيه ملك نافار شقيق ملك قشتالة فرديناند، فاغتنم النافريّون الفرصة واندفعوا بأعداد كبيرة نحو دولة بني هود، فسارت جيوشهم وزحفت كتائبهم في مختلف الاتجاهات لتوجيه أكبر قدر ممكن من الضربات القاسية للمسلمين في تلك المنطقة، ردّاً على ما فعله أخوه فرديناند بحليفه المأمون (أي حليف غرسيه)، أو ليقل صديقه، أو عدوّ عدوه، فألحق الخراب والدمار بأراضي دولة بني هود في المنطقة الممتدة ما بين تطيلة[٧٧] ووشقة[٧٨]، وأدخلت هذه الأعمال الرعب والخوف في نفوس مسلمي دولة بني هود، ولم

---

(٧٥) المصدر نفسه، جـ٣، ص٢٨٠-٢٨١.

(٧٦) ورد عند ابن سعيد ذكر لأمير من بني ذي النون يدعى أرقم بن عبدالرحمن بن إسماعيل بن عبدالرحمن بن إسماعيل بن عامر بن مطرف بن ذي النون كان يعرف بابن المضراس، وأخوه إسماعيل هو أوّل مَنْ تولّى حكم طليطلة من بني ذي النون، وكان المأمون يبغضه ويحسده على أدبه، ففرّ عنه إلى الثغر الأعلى لمملكته: ابن سعيد، جـ٢، ص١٤ وبالمقارنة مع قول ابن عذاري من المحتمل أن والد أرقم هو الذي التجأ إلى دولة بني هود، وإن ولده أرقم هو الذي لجأ إلى مملكة قشتالة وليون وجليقية، ويفهم ذلك ممّا ذكره ابن عذاري من أن ابن عم المأمون ذهب إلى فرديناند ليدلّه على أماكن الضعف في دولة ابن عمّه المأمون: ابن عذاري، ج٣، ص٢٨٠-٢٨١.

(٧٧) تطيلة: تتبع لسرقسطة وتقع في منطقة الثغر: ابن سعيد، جـ٢، ص٤٣٣، ٤٤٩. وقال ياقوت إنّها تقع في الجهة الشرقية بالنسبة لقرطبة: ياقوت: جـ٢، ص٣٣. وقال الحميري: إنها مدينة أندلسية تقع في جوفي وشقة، بين الجوف والشرق من مدينة سرقسطة: الحميري، ص٦٤.

(٧٨) وشقة تقع في منطقة ثغر سرقسطة: ابن سعيد، جـ٢، ص٤٣٣، ٤٦٠. وذكر الحميري أنّها تبعد عن سرقسطة خمسين ميلاً: الحميري، ص١٩٥.

تكتف جيوش ملك نبّره (نافار) بذلك بل قامت بمحاصرة قلعة قلبرة[٧٩] التي تقع في منطقة تطيلة الحدودية، حتّى تمكّنت في بداية عام ٤٣٧هـ من الاستيلاء عليها، كل هذا حدث وابن هود قابع في حصونه لم يجروء على مواجهة تلك القوات التي عاثت في بلاده الفساد والخراب، مع أنه كانت تتوافر له الأعداد الكافية للمواجهة، بل اكتفى بالتحصن وشحن الحصون والقِلاع بالأطعمة والرجال، وترك الأعداء يصولون ويجولون كيفما أرادوا وحيثما شاءوا، الأمر الذي مكّنهم من إلحاق خسائر فادحة بالممتلكات[٨٠].

وعلى أثر ذلك قامت قوات جليقية بقيادة الملك فرديناند ملك قشتالة وجليقية بمهاجمة المناطق الحدودية الشمالية لدولة طليطلة مستغلّة غياب المأمون ومعظم جيشه، إذ أنه كان يرابط في مدينة سالم تحسباً من رد انتقامي من قبل ابن هود، ومن العوامل التي ساعدت فرديناند قدوم ابن عم للمأمون عليه وقيامه بكشف الخلل واطلاع فرديناند على مواطن الخلل في دولة طليطلة، وبعد أن علم المأموت بالخراب الذي ألحقه فرديناند بأطراف دولته، ونتيجة لوصول أعداد من رعيته مستغيثة به، تقدم بقواته وترك مدينة سالم، إلّا أنه لم يفعل شيئاً، إذ أن الخوف من مجابهة قوات فرديناند جعلته يحجم عن المواجهة[٨١]، هذه الأوضاع التي وصلت إليها حالة المسلمين عصفت بدولة طليطلة، واضطربت نتيجة لذلك أوضاعها الاقتصادية، فاستشرى الغلاء في البلاد، عندئذ توجه وفد طليطلي إلى فرديناند المناصر لابن هود ليبرم معه صلحاً، يؤدون له بموجبه أموالاً معينة مقابل السلام والكفّ عنهم والرحيل عن بلادهم، إلّا أنّ الشروط التي اشترطها فرديناند كانت قاسية، ولم يوافق الطليطليون عليها، وقالوا له إنهم لو كانوا يقدرون على تلك الطلبات لأنفقوها على استقدام البربر من العدوة المغربية، ولكنّه هزىء منهم نظراً لمعرفته أن أهل الأندلس لم يكونوا جادّين في دعوة بربر العدوة المغربية، بسبب خوفهم من سيطرتهم على بلادهم وأخذها من

---

(٧٩) قلبرة: وردت تسميتها عند ابن الخطيب الذي يشارك ابن عذاري في ذكر المعلومات التاريخية عن هذه الفترة، قَلَهُرّة وليس قلبرة، وقد وصفها ابن الخطيب بأنها قلعة استولى عليها محمد بن أبي عامر، ولكنّها سقطت بأيدي مملكة نبّرة (نافار) سنة ٤٣٧هـ: ابن الخطيب، أعمال، ص١٧٨. كما أن لفظ المدينة وردت قلهرة عند كل من: ياقوت، جـ٤، ص٣٩٣؛ ابن الكردبوس، م: ١٣، ص٧٤.

(٨٠) ابن عذاري، جـ٣، ص٢٨١؛ ابن الخطيب، ص١٧٨.

(٨١) ابن عذاري، جـ٣، ص٢٨١.

أيديهم[٨٢]، واعتقد أن مقولتهم كانت لإظهار عدم قدرتهم على دفع الأموال المطلوبة من جهة، والتهديد باستقدام قوات جديدة من البربر من جهة أخرى، فكان ردّ فرديناند مخيباً لظنونهم، إذ أنه أعلمهم أنه يعرف مكنون نفوسهم التي كانت لا ترغب في استقدام البربر فعلاً خوفاً على ما في أيديهم من مال وسلطان. وما قاله فرديناند للوفد الطليطلي يكشف بجلاء نوايا الممالك النصرانية نحو الأندلس ومسلميها، وذلك بالاستيلاء عليها كلّها وطرد المسلمين منها إلى العدوة المغربية[٨٣]، ولكنّ هذه المقولة لم تحرّك ساكناً ولم توقظ نائماً من أولئك الناس الذين عاشوا في الأندلس في تلك الحقبة من الزمان، ولم تستطع نفض وإزالة الخوف والأنانية وحب الذات والضعف والاستكانة التي رانت على قلوب الحكام والمحكومين من أندلسيي تلك الفترة، فتتابعت أحداث ذلك المسلسل إلى أن وصلت إلى نهايتها.

ولكن تلك الأحداث الخطيرة تثيرُ فينا التساؤلات الكبيرة التالية: لِمَ لم تُستغل تلك الأموال التي دفعت لملوك الممالك النصرانية، ولماذا لم تُنفق لإعادة بناء الجيوش الإسلامية في دويلات الطوائف بدل تقديمها للأعداء؟! فأيّ عقل سليم يمكنه أن يقبل أن تُدفع أموال الأمّة لأعدائها، ليقوم هؤلاء الأعداء بشنّ حروب خطيرة ومدمّرة على البلدان الإسلامية ومناطقهم وحصونهم ومواردهم الاقتصادية، وقتل رجالهم وأبنائهم، وبثّ الرعب وزرع الخوف في نفوسهم بأموال إسلامية فُرضت عليهم، وجُبيت منهم لحمايتهم ولإنفاقها عليهم، واستنجاد من قياداتهم المحسوبة عليهم أنّهم من المسلمين؟!! إنّها مهزلة... وسخرية... وأية سخرية... ألم يكن بينهم رجل رشيد؟ أعقمت النسوة في تلك الحقبة المأساوية من تاريخ الأندلس أن يلدن رجالاً أسوياء في عقولهم وتفكيرهم، ولديهم القدرة على تغيير الواقع...؟ ألم يُحسن مسلمو ذلك الوقت وخاصة القيادات الشعبيّة الفكرية والفاعليات ذات التأثير، وعلى رأس هؤلاء الفقهاء والقضاة والعلماء، ألم يُحسنوا ويُتقنوا سوى فنّ الوفادات على بلاط حكّام الهزيمة والتجزئة والاقتتال الداخلي؟! وهل نجحوا في مهمّاتهم ومساعيهم؟ والأدهى من ذلك أنهم أجادوا فنّ الوفادة على بلاد ملوك الممالك النصرانية لإقناعها بعدم مهاجمة دولهم، وأهمية المصالحة وضرورة إحلال السلام والوئام

---

(٨٢) انظر ابن عذاري، جـ٣، ص٢٨٢.

(٨٣) انظر الحوار الذي جرى بين الوفد الطليطلي وفرديناند عند ابن عذاري، جـ٣، ص٢٨٢.

مكان الخصام مقابل التزامهم وتعهّدهم باسم دولهم وشعوبهم بأن يؤدّوا الأموال (الجزية عن يد وهم صاغرون) لأولئك الغزاة. . !!

إنّ ما فعله فردينـانـد بدولة طليطلة ردّ عليه غرسيه ملك نبّرة (نافار) المناصر لبني ذي النـون، فخـرج بقواته في السنة نفسها[٨٤] التي خرج فيها فرديناند إلى دولة بني هود، وقام بأعمال التخريب والتدمير التي قام بها فرديناند فأخلّ بدولة سرقسطة[٨٥].

استمـرّت العـداوة المـدمـرة بين دولتي طليطلة وسرقسطة على هذا المنوال من سنة **٤٣٥ـ٤٣٨هـ** فأهلكت الحـرث والنسـل، ولم تتـوقف إلّا بمـوت سليمـان بن هود عام **٤٣٨هـ**[٨٦]، لذلـك يمكن القـول إن ما دار بين بني هود وبني ذي النـون ما بين عامي **٤٣٥ـ٤٣٨هـ** خير دليل وشاهد على الدمار والخراب والضعف الذي أصاب جسد الأندلس الإسلامية بسبب الصراعات والمنافسات بين حكام دويلات الطوائف.

إن من المفـارقات العجيبة حقاً أن تُدفع للممالك النصرانية الأموال الطائلة والهدايا الثمينة لتحقيق أطماعهم في توجيه ضربات قويّة للأندلسيين من كلتا الدولتين المتحاربتين طليطلة وسرقسطة، إذ لم يكتف حكام هاتين الدولتين بتحريض الممالك النصرانية ضد إخوانهم في الدّين والمصير المشترك، بل إنهم تجاوزوا ذلك ودفعوا لهم الأموال الطائلة وبسخاء منقطع النظير لتنفيذ الاعتداءات على إخوانهم، أمّا بالنسبة للممالك النصرانية فإنه واقع ينظرون إليه أمامهم، وحلم يعيشونه لم يخطر لأسلافهم على بال، ما هذا الحظ الذي حالفهم فحقق بذلك طموحاتهم وأطماعهم في بلاد الأندلس؟! إنّها سُنّة الله في خلقه، أن تستخلف الأُمّة الفتية الشابة الأمّة التي أصابتها الشيخوخة واستولى عليها الضعف والوهن، فترث منها أرضها لتكمل بذلك حلقة جديدة في دورة الحياة المستمرة إلى أن يرث الله الأرض وما عليها **﴿سُنّة الله في الذين خلـوا من قبل ولن تجد لسُنّة الله تبديلا﴾**[٨٧]، وإن

---

(٨٤) إن آخر مرّة قام بها حكام نافار بالإغارة على أملاك دولة ابن هود كان في صدر عام ٤٣٧هـ عندما تمكّنوا من الاستيلاء على قلعة قلهرة (قلبرة). ثم كان بعدها ردّ فرديناند وقيامه بمهاجمة مناطق تابعة لطليطلة، وعلى أثر ذلك قام ملك نافار بمهاجمة دولة سرقسطة ردّاً على ما فعله شقيقه فرديناند بدولة طليطلة، ولذلك فإن ما أشير إليه في المتن يكون قد تمّ على أقل تقدير في أواخر عام ٤٣٧هـ أو عام ٤٣٨هـ كحدٍ أقصى.

(٨٥) ابن عداري، جـ٣، ص٢٨٢.

(٨٦) ابن عذاري، جـ٣، ص٢٨٢؛ ابن الخطيب، ص١٧٨.

المصير الذي آلت إليه طليطلة فيما بعد هو النتيجة الحتمية لما كان.

توقفت الحرب بين طليطلة وسرقسطة بعد وفاة سليمان بن هود، واستمرّ ذلك التوقف حتى وفاة المأمون يحيى بن إسماعيل بن ذي النون عام ٤٦٧هـ[٨٨]، فقد ذكر ابن الكردبوس أن القادر يحيى الذي خلف جدّه في تولّي الحكم كان صغيراً بالإضافة إلى كونه ضعيف الشخصية، ونظراً لذلك طمع الطامعون في بلاده، فأوّل مَنْ تقدم للسيطرة على أملاكه المعتمد بن عبّاد لما كان بينه وبين جدّه المأمون من العداوة والتنافس، فاستولى المعتمد على قرطبة وطلبيرة وغافق والمنطقة الممتدة بينهما[٨٩]، كما أن أحمد بن سليمان بن هود صاحب سرقسطة بدأ الحرب ضد القادر وأخذ يحاربه بضراوة ويطالبه أشدّ مطالبة، ولم يكتف بمحاربته بنفسه بل استعان بابن راميروا الأول الذي مكّنه من الاستيلاء على شنتبرية (Sentaver) وملينة[٩٠] (Molina)، ولم يستطع القادر الدفاع عن دولته نظراً لقصر باعه في إدارة الدولة، فاستنصر بالفونسو السادس[٩١].

---

(٨٧) سورة الأحزاب، آية ٦٢.

(٨٨) انظر المصادر التالية بخصوص وفاة المأمون: ابن الأبّار، الحلّة، جـ٢، ص١٧٧؛ ابن الخطيب، ص١٥٨، ١٧٨؛ ابن خلدون، م: ٤، ص٣٤٧؛ القلقشندي، صبح، جـ٥، ص٢٥٢.

(٨٩) ابن الكردبوس، م: ١٣، ص٧٩.

(٩٠) ابن الكردبوس، م: ١٣، ص٨٠ وابن راميرو هو ملك ارغون ونبّرة سانشو راميرز.

(٩١) الفونسو السادس هو ابن الملك فرديناند بن سانشو الملقب بالكبير، وكان والده الملك فرديناند قد جعل له حكم ليون واستورياس، وحقّ الجزية السنوية التي يؤديها صاحب دولة طليطلة ابن ذي النون، قبل عام من وفاته أيّ عام ٤٥٦/٤٥٧هـ - ١٠٦٤م بحضور كبار الأساقفة ورجال الدولة في مجلس عقده في ليون، وجعل لابنه الأكبر سانشو حكم قشتالة وحقّ السيادة والجزية على دولة سرقسطة، وأمّا جارسيا أصغر أولاده فقد خصّه بجليقية والبرتغال وحقّ الجزية على دولتي أشبيلية وبطليوس، إلاّ أنّ سانشو أكبر الإخوة الثلاثة ضمّ إليه مملكتي أخويه عام ١٠٧١م، وتمكّن الفونسو أخيراً من العودة إلى الحكم بعد اغتيال شقيقه الأكبر عام ١٠٧٢م، وأصبح ملكاً على الممالك الثلاث. بعد أن أمضى فترة من حياته طريداً ولاجئاً عاشها في كنف المأمون وفي قصوره في طليطلة: وأشار إلى ذلك كلّ من ابن بسام، ق: ٤، م: ١، طبعة ١٩٤٥م، ص١٢٤-١٢٥؛ ابن الخطيب، ص١٨١؛ ابن الكردبوس، م: ١٣، ص٧٦-٧٧؛ انظر أشباخ، يوسف، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمه ووضع حواشيه: محمد عنان، ط٢، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م، ص٢٠-٢٢.

لم يكتف ابن هود بما استولى عليه من أراضي القادر، بل قام بمداخلة نائب القادر على بلنسية أبي بكر بن عبدالعزيز، وحثّه على أن يستقلّ بحكم بلنسية عن حكم القادر، ووعده بالدعم والتأييد، وزيادة في التأكيد خطب أحمد بن سليمان بن هود ابنة قائد بلنسية فزفّت إليه(٩٢)، وبفعل ابن هود ذلك يكون قد ساعد على تمزيق وحدة دولة طليطلة وإضعافها.

كما أن المصدر ذكر أن ابن هود وابن راميروا الأول حاصرا كونكة التابعة لحكم القادر حتى شارف أهلها على الموت عطشاً، ولولا أنهم دفعوا أموالاً كثيرة للقوات المُحَاصرة لهلكوا، وصادف ذلك وصول الجيش الطليطلي بقيادة بشير الفتى الذي أرسله القادر لمحاربتهم، فانسحبت قوات الحليفين، واكتفى القائد الطليطلي برجوعهما إلى بلديهما؛ لأنه اعتبر أن إنسحابهما دون خوض معركة معهما هي مكسب كبير له ولقواته(٩٣).

ممّا سبق يلاحظ أن الصراع فيما بين دول الطوائف في الأندلس الذي تمثّل في اقتتال دولتي سرقسطة وطليطلة واستعانة كل واحدة منهما بالممالك النصرانية ضد الأخرى، قد أدّى إلى تخريب ديار المسلمين وحصونهم، وتدمير مواردهم الاقتصادية نتيجة لاحتدام الصراع بينهما، وما رافقه من استغلال الممالك النصرانية لذلك الوضع، وقيامهم بشن الهجمات المتواصلة على مناطق الدولتين المتحاربتين، الأمر الذي أدّى إلى إشاعة الخوف والرعب في صفوف المسلمين، لدرجة أنهم لم يعودوا قادرين على مواجهة الأعداء، أو حتّى الثبات لهم في ميدان القتال إذا ما زحفت جموعهم وتغلغلت في ديار المسلمين فكانوا يولّونهم الأدبار إذا ما ظهروا، ويكتفون بالتحصن داخل معاقلهم وحصونهم، هذا الوضع شجّع الممالك النصرانية على زيادة عمليّاتهم ضدّ المسلمين وأكسبهم التفوق والقدرة على هزيمة قوات مسلمي الأندلس نتيجة للمعنوية التي بدأت تدبّ في كياناتهم، في حين أن تدنّي المعنويات وانعدامها عند مسلمي الدولتين أدّى فيما بعد إلى سقوط المناطق الأندلسية الواحدة تلو الأخرى، ومن النتائج التي ظهرت بسبب الصراع بين الدولتين المسلمتين وانشغالهما بالحرب فيما بينهما، سقوط مناطق حدودية من كلا الجانبين

---

(٩٢) ابن الكردبوس، م: ١٣، ص٧٩. وذكر ابن خلدون أن ابن هود حرّض حاكمها على إعلان التمرّد على القادر ففعل واستقلّ في حكمها سنة ٤٦٨هـ، وظلّ فيها حتى سقوط طليطلة عام ٤٧٨هـ وقيام القادر بمساعدة الفونسو بالاستيلاء عليها: ابن خلدون، م: ٤، ص٣٤٩؛ القلقشندي، صبح، جـ٥، ص٢٥٣.

(٩٣) ابن الكردبوس، م: ١٣، ص٨١.

المتصارعين بأيدي الممالك النصرانية، كقلهرة مثلاً من دولة سرقسطة وبعض الحصون الطليطلية المحاذية لدولة قشتالة. ومن أسوأ المظاهر التي ترتبت على الصراع بين دولتي سرقسطة وطليطلة، دفع الأموال، وتقديم الهدايا الثمينة للغزاة من كلتا الدولتين، مقابل قيامهم بشن هجمات على مناطق الدولة المسلمة الأُخرى، هذا الواقع انعكس بالتالي على الوضع العسكري والمالي للمسلمين والنصارى، فدفعُ الأموال للغزاة والاستمرار بذلك من قبل المسلمين أدّى إلى توفير الأموال اللازمة للأعداء للإعداد إلى حرب المسلمين، ممّا أدّى إلى إخراجهم من الأندلس نهائياً فيما بعد، كما أدّى تدفق الأموال للمالك النصرانية أيضاً إلى انتعاش اقتصادها وزيادة مقدّراتها على إعداد الجيوش، وتمتين مختلف جوانب قواهم، في حين أن ذلك أثّر بشكل واضح على ضعف الدويلات الإسلامية في النواحي المالية والعسكرية والسياسية، ولذلك يمكن القول إن تلك الحرب المجنونة التي اشتعلت بين دول الطوائف زادت من قوّة الممالك النصرانية، في حين أنها مزّقت إمكانات وقدرات الدويلات الإسلامية في الأندلس، وقد أثّر ذلك في النهاية على الوجود الإسلامي بكامله في الأندلس في الفترات اللاحقة نتيجة لحالة الضعف والعجز السياسي والعكسري والاقتصادي التي وصلت إليها دويلات الطوائف.

الحدود التي بلغتها دولة طليطلة إبّان عهد المأمون:ـ

إن الحدود الجنوبية لطليطلة كانت على مقربة من مدينة قرطبة وتوسعت جنوباً وخاصة بعد الاستيلاء على حصن المدّور القريب من قرطبة، إلى أن تمّ الاستيلاء على قرطبة نفسها عام ٤٦٧هـ، أمّا بالنسبة للجهة الشرقية وخاصة الجنوبية الشرقية منها، فإنّ حدود الدولة الطليطلية قد امتدت لتشمل المناطق التالية: بلنسية التي تم الاستيلاء عليها خلال عامي ٤٥٧/٤٥٨هـ، وبالتالي امتداد النفوذ والسيطرة الطليطلية إلى المناطق التي كانت تابعة بولائها لبنلسية مثل مربيطر وشاطبة ودانية، وأخيراً امتدّت الحدود الطليطلية إلى مرسية وأوريولة (تدمير) بعد الاستيلاء عليهما عام ٤٦٥/٤٦٦هـ ـ ١٠٧٣م[٩٤].

وكانت دولة طليطلة تضم رقعة كبيرة من الأرض في قلب الأندلس تمتد شرقي بطليوس من قورية وترجالة نحو الشمال الشرقي، حتّى مدينة قلعة أيّوب وشنتمرية الشرق، جنوب غربي دولة بني هود في الثغر الأعلى، وتمتد شمالاً باتجاه الشرق قليلاً فيما وراء نهر التاجه

---

(٩٤) انظر أبو ملّوح، ص٣٧٧ـ٣٨٤، ٣٨٥ـ٣٨٦.

متاخمة لقشتالة القديمة، ومن أعمالها مدينة سالم ووادي الحجارة وقونقة (كونكة) ووبذة واقليش ومورة وطلبيرة وترجالة بالإضافة إلى مناطق أخرى[٩٥].

وممّا سبق يلاحظ أن المساحة التي امتدت إليها حدود دولة طليطلة في عهد المأمون قد بلغت أقصى درجة اتساع لها إبّان عهد دويلات الطوائف.

(٩٥) عنان، دول، ص٩٤.

طليطلة في عهد القادر يحيى بن ذي النون[٩٦]

وتقودنا أحداث طليطلة وظروفها، والنتائج التي انبثقت عنها أو أدّت إليها إلى التساؤل ألم يكن بالإمكـان منـع القيادة المتنفـذة في طليطلة الجاثمة على صدر الوطن والأمة، والمتربعة على منصّة القيادة، ألم يكن بالإمكان إقصاؤها ومنعها من الاستمرار في القيادة والحكم في ظلّ تلك الظروف، والسير بالبلاد إلى المصير الذي آلت إليه بسببها؟؟ فها هي القيادة الطليطلية قد قفزت إلى زوارق النجاة التي سبق وأن أُعدّت لها عندما تغرق السفينة، فتنتهي مهمّتها وتذهب هي لتَسلُّم مكافأتها في مكان آخر من البلاد وها هي تتقدّم إلى منصّة

(٩٦) ذكر ابن بسام أن المأمون بن ذي النون أقام احتفالاً مشهوداً عام ٤٥٥هـ بمناسبة إعذار (ختان) حفيده يحيى القادر بالله، وإن القادر مشى إلى مكان الإعذار بنفسه. . . ابن بسام، ق: ٤، م: ١، طبعة، ١٩٤٥م، ص٩٨، ١٠٠. ولو افترضنا أنّ عُمرَ حفيد المأمون كان يتراوح ما بين الثالثة والسابعة، وإذا أُضيف ذلك إلى الاثنتي عشرة سنة التي أعقبت ختان القادر بالله إلى حين تولّيه السلطة عام ٤٦٧هـ، فإن عمره يكون ما بين الخامسة عشر والتاسعة عشر، ومع صغر هذا السنّ على الحكم فقد تربّى في أحجار حريم القصر ونشأ بين الخصيان والغانيات وهذه الأمور ساعدت على تدخّل العبيد في شؤون الدولة (ابن الكردبوس، م: ١٣، ص٧٩) وأجواء كأجواء قصور طليطلة في عهد الطوائف كفيلة بأن تعطي صورة للمتمعّن، لهذه الفترة ولبطلها القادر بالله. كما أن ملامح هذه الشخصية تتضح من خلال ما ورد في بعض المصادر عن صفات القادر وأمراض لازمت شخصيته: فابن الخطيب ذكر أن القادر كان مصاباً بدرن نغّص عليه حياته: ابن الخطيب، أعمال، ص١٧٩. وأنّه كان ضعيفاً عندما تولّى شؤون الحكم ولكنّه أصبح كثير الحيلة وخبيث الفكرة: المصدر نفسه، ص١٧٩. أمّا ابن سعيد فقد أورد في جـ٢، ص١٣ أن القادر بالله يحيى بن إسماعيل بن يحيى المأمون. . كان سيّءَ الرّأي، إن حزم لم يعزم، وإنّ سدّى لم يلحم. . في حين إن ابن بسام ذكر عمّن نقل عنهم صفات القادر أنّهم زعموا أن القادر كان: «إمّعة أمّرة، أجبن من قبّرة، إن حزم لم يعزم، وإن سدّى لم يلحم، إلى ما كان يعرضه من غرض، ويلزمه أكثر مدّته من مرض، من ذرب لازم ـ زعموا ـ كان لمعدته، واستحرار حاسم لمرّته» ابن بسام، ق: ٤، م: ١، طبعة، ١٩٤٥م، ص١١٦ـ١١٧. سبق وأن مرّ ما ذكره ابن الكـردبوس حول صغر سنّ القادر وضعف شخصيّته عندما تولّى الحكم: ابن الكردبوس، م: ١٣، ص٧٩.

التنصيب الجاهزة في بلنسية حيث بدأت تتراءى لها أو تتخيّلها، فخيل قشتالة المعدّة لجرّ عربات القيادة إلى بلنسية بدأت تقترب ثم كان الدخول والفتح المؤزّر المبين!!

بعد الذي حدث، هل يتمكن غير المؤهلين من القادة والمسؤولين من إدارة دفة الحكم والسير بالسفينـة إلى شاطىء الأمـان، وخصوصاً في الفترات الزمانية المصيرية والظروف الحرجة التي يمرّ بها الوطن والأُمّة، وتؤثر على وجودها واستمراريتها، كما كان الحال في الأندلس إبّان عصر دويلات الطوائف..؟! وما هو مصير الشعوب والأوطان التي تُبتلى بمثل أولئك القادة والحكّام، وخاصة إذا كانوا قاصرين صغاراً في السنّ، أو إذا أصابهم الصَغار في الفعـل والعقل وفي مستويات إدراكهم واهتماماتهم بالأحداث التي تمرّ بها بلادهم، والأخـطار التي تعصف بوجـود الأُمة والوطن الذي ينتسبون إليه أو ينسبون أنفهسم إليه، وخاصة إذا صادفتهم أثناء وجودهم أو خلال فترة حكمهم أحداثاً خطيرة وهامة كالأحداث الجِسام التي وقعت في الفترات التي تولّى فيها الحكم الملك الصغير القادر يحيى بن ذي النون، والقاصر حسام الدولة ابن رزين المعروف بابن الأصلع، وأبو عبدالله الصغير آخر المنتزين على حكم غرناطة وغيرهم ومَنْ هم على شاكلتهم؟!!

إن من أخطر العوامل التي تدفع البلاد إلى الدمار والضياع، وتودي بالأُمة إلى التهلكة، وتساهم في تمزيق النسيج الاجتماعي، والصلات التي تربط بين أفراد المجتمع بعضهم بعضاً، وجود شعور من اللامبالاة وعدم الاكتراث بمصير الوطن والأمة وبكل ما يجري، كما أن وجود أو فقدان الثقة وانقطاع الصلة والتفاهم والتعاون بين القادة والمواطنين من جهة، وبين المواطنين أنفسهم من جهة أُخرى تؤدّي إلى ذلك، ومن العوامل التي تساهم أيضاً في ذلك، عدم قدرة القيادة على إقناع أتباعها ومواطنيها وعدم اقتناعهم بها بداية وذلك لعدم أهليتها، وقلّة خبرتها، وانعدام كفايتها، وتفرّدها في الإدارة والحكم، وأنانيّتها وانزلاقها إلى تقديم مصالحها الخاصة ورغباتها على المصالح العامة، كما ان استئثارها دون سائر فئات المجتمـع بمقدّرات البلاد، وانتهاجها سياسة القسوة والبطش وزرع الخوف وبثّ الرّعب وتـطفيش المـواطنين ـ أو الأتبـاع والمريدين ـ وخاصة المعارضين أو مَنْ لا يرون رأيها، ودفعهم إلى ترك الوطن نتيجة للفساد الإداري و..، وعدم شعورهم بالإنصاف وإمكانية الحصول على حقوقهم وأخذ مكانتهم التي يستحقون، وإجراء التغييرات التي يعتقدون أنها مناسبة، وبالإضافة إلى ما سبق فإن استقواء القيادة بقوات أو قوى أجنبية، واستعانتها بفئة أو فئات عِرقية ضد مواطنيها، وأتباعها، وخاصة المعارضين لسياستها أو الذين لا يرون رأيها

في بعض النواحي والتوجّهات، كل ذلك يؤدّي إلى حالة من سريان الكراهية والحقد في وجدان المواطنين وقلوبهم، كما يؤدّي ازدياد ذلك الشعور إلى حالة من عدم الاستقرار، والتخبط والانهيار وضياع الهوية وبالتالي ضياع الوطن، والوقوع تحت سيطرة القوى الأجنبية الطامعة، والقوى المتربّصة والمنافسة ووصايتها. كما حدث في طليطلة بعد وفاة المأمون.

فبوفاة المأمون رجل طليطلة القوي عام ٤٦٧هـ، تفككت دولته الشاسعة، وبدأ الضعف والانحسار يدبّان في أوصالها وأركانها، فحلّ مكانه حفيده القادر يحيى الذي لم يكن رجل المرحلة المناسبة بسبب ضعف شخصيته، وقلّة خبرته وحيلته، فطمع الطامعون بدولته المترامية الأطراف، فقد تقدّم أحمد بن سليمان بن هود حاكم سرقسطة من جهته واستولى على شنتبرية وملينة بمساعدة قوات من مملكة نبّرة (نافار) وارغون بقيادة سانشو بن راميرو الأول Sancho Ramizrez، كما أن ابن هود وابن راميرو حاولا الاستيلاء على كونكة Cuenca، وانتزع المعتمد بن عبّاد من القادر قرطبة وطلبيرة وغافق وبعض المناطق المجاورة لهاتين المنطقتين[٩٧].

وتقدمت القوات القشتالية وهاجمت المناطق الشمالية من الدولة الطليطلية بقوة، واستولت على بعض الحصون كحصن سرية وحصن قورية[٩٨]، بعد قيام ثورة داخلية في مدينة طليطلة ضد القادر في الوقت الذي قتل فيه ابن الحديدي[٩٩]، أي عام ٤٧٢هـ[١٠٠]، وأدت في النهاية إلى هروب القادر ومعه بعض حاشيته وأسرته من طليطلة إلى وبذة[١٠١] Huete، وذكر أن القادر عاش الفترة التي أمضاها خارج طليطلة في مدينة كونكة[١٠٢] وكان خروج القادر بسبب اشتداد القلاقل والاضطرابات داخل طليطلة، وأثّرت تلك الأحداث بالإضافة

---

(٩٧) ابن الكردبوس، م:١٣، ص٧٩، ٨٠، ٨١.

(٩٨) ابن الكردبوس، م:١٣، ص٨٣.

(٩٩) ابن بسام، ق:٤، م:١، ص١٥٤؛ ابن بشكوال، ق:١، ص٢٢٣؛ ابن سعيد، جـ٢، ص١٣؛ ابن عذاري، جـ٣، ص٢٧٧.

(١٠٠) انظر ابن بسام، ق:٤، م:١، ص١٥٩.

(١٠١) وبذة مدينة تقع غربي مدينة قونكة وتبعد عنها خمسين كيلو متراً، وكانت من الحصون الشمالية الشرقية لدولة طليطلة: ابن الكردبوس، م:١٣، ص٨٣ (الحاشية).

(١٠٢) انظر ابن بسام، ق:٤، م:١، ص١٥٩ فإنّه ذكر أن القادر تمكّن من دخول كونكة بعد خروجه من طليطلة؛ ابن الخطيب، أعمال، ص١٨٠.

إلى خروج القادر على الوضع الطليطلي ممّا زاد في تردّيه[١٠٣]، وهكذا فإنّ هذا الوضع الذي أضحت عليه طليطلة، والـذي تمثّل في عدم وجود حكومة قوية لها، والاضطرابات التي سادت فيهـا، دفع ببعض أهلها إلى الطلب من المتوكل عمر بن الأفطس حاكم بطليوس القدوم إلى طليطلة لتولّي الحكم فيها عام ٤٧٢هـ[١٠٤]، بعد أن قدّم القادر تنازلات للفونسو السادس وخاصة مطالبته المواطنين جمع مبالغ ضخمة من الأموال ليقدّمها بدوره للفونسو مقابل توفير حماية له من أعدائه في الداخل، وعندما شعر القادر بما جرى خرج من طليطلة فارّاً بنفسه[١٠٥].

أمّا موقف الفونسو فقد كان نابعاً في حقيقته من رغبته في إضعاف دول الطوائف مادّياً عن طريق استجلاب أموالهم، وقيامه بضرب بعضهم بعضاً حتّى يتسنّى له تحقيق هدفه في الاستيلاء على المناطق الواقعة تحت سيطرة المسلمين في الأندلس[١٠٦].

لم يدم حكم عمر بن الأفطس لطليطلة إلّا عشرة أشهر[١٠٧]، أيّ أنه ترك طليطلة في النصف الثاني من عام ٤٧٣هـ عائداً إلى بلده بطليوس، بعد أن تقدّم القادر ومعه الفونسو وقاما بمحاصرة طليطلة، لأنّ قدوم ابن الأفطس إليها كان في أواخر عام ٤٧٢هـ[١٠٨]، ومن المنـافـع الأولية التي حققها الفونسو السادس من جرّاء مساعدته للقادر على إعادة فرض سلطتـه على طليطلة، الاستيلاء على بعض المنـاطق الـطليطلية كحصـون سرية وقورية وقنالش[١٠٩] ومقادير كبيرة من الأموال[١١٠]، وبعد فرار ابن الأفطس بقيت المقاومة مستمرّة

---

(١٠٣) انـظر الصنهـاجي، الأمير عبـدالله بن بلقين، التبيان، مذكـراته، نشر وتحقيق: بروفنسال، دار المعـارف، مصر، ١٩٥٥م، ص٧٧؛ ابن بسام، ق:٤، م:١، ص١٥٧-١٦٢، ابن الكردبوس، م:١٣، ص٨١-٨٣؛ ابن الخطيب، ص١٧٩-١٨٠.

(١٠٤) انـظر ابن بسام، ق:٤، م:١، ص١٥٨، ١٥٩؛ ابن الخطيب، ص١٨٠؛ وانظر ابن سعيد، جـ٢، ص١٣.

(١٠٥) انظر ابن الكردبوس، م:١٣، ص٨٢-٨٣.

(١٠٦) ابن الكردبوس، م:١٣، ص٨٣.

(١٠٧) ابن بسام، ق:٤، م:١، ص١٥٩؛ ابن الخطيب، ص١٨٠.

(١٠٨) ابن بسام، ق:٤، م:١، ص١٥٩؛ ابن الخطيب، ص١٨٠.

(١٠٩) ابن الكردبوس، م:١٣، ص٨٣.

(١١٠) ابن بسام، ق:٤، م:١، ص١٦٢، ١٦٣؛ ابن الكردبوس، م:١٣، ص٨٣.

للقادر وللفونسو بقية عام ٤٧٣هـ وجزءاً من عام ٤٧٤هـ، حتى كان يوم عيد الأضحى من عام ٤٧٤هـ، حيث دارت معركة بين الجانبين في شوارع طليطلة، أدّت في نهايتها إلى تحقيق القادر والفونسو النصر على المقاومة الطليطلية(١١١).

ممّا سبق يلاحظ أنه بسبب الخلافات الداخلية في طليطلة، وبسبب النزاعات مع جيرانها من دول الطوائف، خسرت وتخلّت عن بعض أهمّ خطوط دفاعاتها وحصونها المواجهة لمملكة قشتالة(١١٢)، ولذلك فإنّ تلك الخلافات قرّبت المسافة على القشتاليين للقيام بإسقاط مدينة طليطلة نفسها، بعد أن أوصلتها إلى حالة الضعف والانهيار الاقتصادي والسياسي والعسكري والمعنوي. وعندما وصلت الدولة الطليطلية إلى هذا الحدّ من العجز والضعف أخذ التنافس بين بني عبّاد وبني هود والممالك النصرانية في التسابق للحصول على نصيب من تركة الدولة الطليطلية، عن طريق الاستيلاء على مناطق من ممتلكاتها المحاذية والقريبة من حدود الدول المتنافسة(١١٣)، كما أن بعض ولاة الدولة الطليطلية في بعض المناطق التي كانوا يديرونها، استغلّوا الظرف وأعلنوا استقلالهم فيها، من أمثال الوزير أبي بكر بن محمد بن عبدالعزيز، الذي أعلن استقلاله ببلنسية عن طليطلة عام ٤٦٨هـ بتحريض وتأييد من أحمد بن يوسف بن هود حاكم سرقسطة(١١٤)، وكذلك الوزير القائد أبو عيسى بن لبّون أحد وزراء المأمون الذي استقلّ بمربيطر(١١٥)، ومن المؤكد أن استقلاله كان في عهد الضعف الذي مرّت به الدولة الطليطلية إبّان عهد القادر، كما أن ابن وهب استقلّ بوبذة(١١٦)، ولا شكّ أن معظم القادة والولاة الذين كانوا يديرون المناطق التي كانت تتبع لدولة طليطلة في عهد المأمون قد استقلّوا بما في أيديهم عن السلطة المركزية، نظراً لحالة الضعف والانهيار التي دبّت في أوصال الدولة الطليطلية منذ تولّي القادر الحكم عام ٤٦٧هـ، وخاصة الفترة التي أعقبت عام ٤٧٢هـ. ولذلك يمكن القول إن الجبهة الداخلية

---

(١١١) ابن بسام، ق:٤، م:١، ص١٦٢، ١٦٣.

(١١٢) انظر: أبو ملّوح، ص٣٧٦-٣٧٧، ٣٧٩، ٣٨٠.

(١١٣) ابن الكردبوس، م:١٣، ص٨٤.

(١١٤) ابن الكردبوس، م:١٣، ص٧٩؛ ابن خلدون، م:٤، ص٣٤٩؛ القلقشندي، صبح، جـ٥، ص٢٥٣.

(١١٥) ابن بسام، ق:٣، م:١، ص١٠٤-١٠٥؛ ابن سعيد، جـ٢، ص٣٧٦.

(١١٦) ابن الكردبوس، م:١٣، ص٨٣.

في الدولة الطليطلية أو في مدينة طليطلة بالذات قد تفككت نتيجة للثورة الداخلية التي اندلعت في المدينة، فأصبحت الأوضاع كما يلي: هناك الطامعون من دول الطوائف ومن الممالك النصرانية الذين أخذوا يقضمون المناطق المجاورة لهم من تركة الدولة الطليطلية، ويضاف، إليهم العمال والقادة الذين كانوا يديرون المناطق التابعة لطليطلة، الذين قاموا بإعلان استقلالهم نظراً لضعف سلطة الحكومة الطليطلية، والأدهى من كل ذلك تفكك جبهة العاصمة طليطلة بالنسبة للدولة النونية، هذه المؤشرات كانت تنبّىء بالمصير الذي ستؤول إليه طليطلة في السنوات اللاحقة، فأوضاع مثل تلك الأوضاع التي كانت تعيشها طليطلة لا بدّ وأن تقود إلى المصير والنتيجة التي آلت إليها طليطلة فيما بعد وأدت إلى ضياعها من أيدي أبنائها بطريقة مذلّة.

القادر يُسلّم طليطلة إلى الفونسو مقابل وعد منه بتنصيبه حاكماً على بلنسية وإقراره عليها:ـ

وقّع القادر اتفاقاً سرّياً مع الغزاة تعهّد بمقتضاه بتسهيل مهمة استيلاء الغزاة على البلاد وتسليمهم العاصمة، التي أخرج منها طريداً خائفاً يترقب نقمة مواطنيها، فها هو يعاد إليها تحت أسنّة رماح القشتاليين ليقوم بتسهيل عملية تسليم البلاد لأسياده القشتاليين، ويمهّد لذلك ويهيىء الأسباب مقابل قطع الغزاة وعداً له بتنصيبه حاكماً باسمهم على بلنسية التي كانت قد خرجت عن سلطته، فكان له فيما بعد ما أراد تحت وطأة حراب الأعداء وحمياتهم، مقابل المحافظة على مصالحهم في تلك المنطقة، والالتزام الكامل بما يطلب منه، وهكذا تمّ للغزاة القشتاليين وأذنابهم في الأندلس تهيئة المواطنين للمخططات والخطوات اللاحقة: من خلال تهيئة الأجواء وتوفير العوامل الكفيلة بإنجاح مخططاتهم ومكائدهم، فقد هيئت المنطقة ومواطنوها نفسياً ومعنوياً واقتصادياً وسياسياً وعسكرياً للحدث الكبير.

واتّبعت القيادة المفروضة بقوّة السيوف الأجنبية الدخيلة وسيوف ذوي القربى بقيادة القادر، سياسة البطش والقسوة وبثّ الرعب وزرع الخوف، لجمع المال المتفق عليه في ظاهر الأمر مع الفونسو، لتنفيذ بنود الاتفاقيّة السريّة التي كان يقتضي بموجبها تسليم العاصمة ومناطق مهمة أخرى تابعة لها، والتنازل كليّاً عنها، والإقرار بذلك والتوقيع عليه من قبل ممثّلي الوطن والأمة من أعيان المدينة وسراتها وفعالياتها القيادية الشعبية، ولإخراج ذلك إلى حيّز الوجود والواقع نُفّذت تلك السياسة للقضاء على الأنفة والعنفوان لدى المواطنين، ممّن سيفكرون بالمعارضة وإبداء أيّة مقاومة لذلك المشروع. فكان للقادر ولأسياده الذين يأتمر بأوامرهم ما أرادوا، فأصبح المواطنون يرتاع الواحد منهم من ظلّه نتيجة لتلك

السياسات والممارسات والبرامج والخطط التي أعدّت لتهيئتهم لِتَقَبُّل وتنفيذ ما ستسفر عنه نتائج المرحلة القادمة ومتطلباتها.

وأمّا السياسة التي اتّبعها القشتاليون فكانت عبارة عن عمليات عسكرية وحرب إبادة ووحشية كانت تهدف إلى نسف مرافق الشعب وتدمير موارده، من خلال شنّ الهجمات على المواطنين والتضييق عليهم بشتّى أنواع الوسائل وألوان التعذيب، لتحطيم اقتصادهم وتجويعهم وتحطيم نفسيّاتهم ومعنوياتهم وبثّ الرعب في أعماقهم، لدفعهم لتنفيذ ما تمّ الاتفاق عليه سرّاً بين الفونسو والقادر من خلال تهجير قسم منهم وإجبارهم على النزوح، وتأييس الأخرين لإضعاف مقاومتهم ودفعهم للقبول بالتسليم والسلام وإجراء المفاوضات، وعندما استقن المخططون في خارج البلاد والمنفّذون في داخلها من ما آلت إليه أوضاع المواطنين ونفسيّاتهم ومن يُتوقّع مقاومتهم ورفضهم لمحتوى الاتفاقية، جاءت الخطوة التالية والمرحلة اللاحقة. فكانت الهجمة والحملة الأخيرة التي خطط لها ونفّذها المتعاهدون والمتعهّدون، من كلا الطرفين، فبدأت عمليّة محاصرة البلاد لإجبار أهلها على التسليم والقبول بالمفاوضات لتسليمها من قِبلهم ـ علماً بأن المفاوض السرّي والمفاوضات الحقيقية كانت قد جرت وانتهت قبل ذلك بسنين بين القادر والفونسو ـ وأدّت إلى التوقيع على الاتفاقية (اتفاقية التسليم فالسّلام) بعد أن رأى المواطنون بأعينهم وسمعوا بآذانهم رسل حكّام دويلات الطوائف من بني جلدتهم وهم يقدّمون الهدايا وأموال الجزية إلى الفونسو ـ عن يد وهم صاغرون ـ بعد عملية إذلال مقصودة، قصد بها الوفد الشعبي الطليطلي، لقد تمّ تقديم ذلك لمن يحاصر الشعب الطليطلي وللمحاصرين الغزاة.. أو لمن يعيث في بلاد الأندلسيين فساداً، وبمواطنيهم تقتيلاً وبمرافقهم تدميراً دون أن يندى لهؤلاء الرسل والوفود ولمن أرسلوهم جبين أو يخالطهم شعور بالنخوة أو يحرّك فيهم ساكناً، ثم تسارعت المفاوضات بعد أن رأى الوفد الطليطلي بامّ عينيه ما رأى. وأنّه لا خلاص لهم ممّا هم فيه كما تخيّلوا وزعموا إلاّ بالتوقيع والتسليم فإحلال السلام، ولكنّهم قدّموا عريضة بمطالب (لا تعني الإصرار والاشتراط) مقابل تسليم البلاد والتوقيع على ذلك لعلّ هذه العريضة وتلك المطالب تحفظ لهم ماء وجوههم، وتساعدهم على تنفيذ ما اتفق عليه، لإقناع المواطنين بأنّ الاتفاقية هي إنجاز عظيم من إنجازاتهم لم تكن لتتحقق لولا شجاعتهم وقدراتهم الدبلوماسية، بعد أن خاضوا معركة المفاوضات باقتدار منقطع النظير، ومن أبرز مطالبهم (التي تحققت) الحصول على الحكم المدني الإداري الذاتي على النفوس فيما يتعلق

بالأحوال الشخصية، والاحتكام فيما بينهم وفق شرائعهم على أن يطبّق عليهم أحكامها قضاة منهم، هذا فيما يتعلق بهم وفي علاقاتهم فيما بينهم فقط، ودون أن يكون لذلك أيّة آثار على الأرض وحقّ السيادة، وفيما يتعلق بالعلاقات بين المسلمين وغيرهم فإن البتّ في ذلك والحكم فيه يعـود للسلطة القشتـالية، ولإضفاء الأهميّة على الاتفاقية وهذا الإنجاز! أمام المواطنين (الطليطليين) كان أوّل مطلب لوفد المفاوضات في العريضة التي تقدّموا بها للغزاة وملكهم الفونسو: أن تبقى ملكية المسجد الجامع في العاصمة بأيدي المسلمين، ويبدو أن ذلك كان للتمسّد به ولغايات التّبرك به أمام المواطنين وبقيّة أفراد الأمّة، فتم منحهم هذا الإنجاز المشرّف ليتباهوا فيه أمام مواطنيهم، ولذرّ الرماد في العيون، ولكن مقابل تسليم كلّ التجهيزات والإمكانات والمقدّرات العسكرية التي بحوزتهم كالحصون التي لم يتسلّمها الغزاة بعد ولم يقدروا على ذلك، وكذلك الأمر بالنسبة للأمور المتعلقة بالشؤون السياسية وحقّ السّيادة فإن عليهم تسليمهـا للفونسو: باعتبار أنه قد أصبح المرجع الوحيد للسلطة السياسية وغير السياسية في البلاد، وللتأكيد على أن حق السيادة أمر مفروغ منه ولا جدال فيه.

فعملوا بالذي أمروا به ظناً منهم أو من بعضهم أن ما تمّ الاتفاق عليه سيحترم وينفّذ، ولكن وقبـل أن يمضي أقـلّ من شهرين على التوقيع كان نقض الغزاة للمعاهدة، فحُوّل المسجـد الجـامـع لعاصمتهم إلى كنيسة وبأمرٍ ملكي من الفونسو السادس سيّد الجزيرة وامبراطور الملّتين نفسه.

ومن الجدير بالملاحظة أن القادر لم يشترك ظاهرياً في المفاوضات أمام المواطنين، ولم يتفّق هو ومَنْ شاكله من كبراء طليطلة على تسليم العاصمة وبقيّة البلاد، بل إن الذين فاوضـوا هم ممثّلـو الشعب والمحسـوبون على المعارضة، كما أن حاكم أكبر دويلة من دويلات الـطوائف ـ وهـو المعتمد ابن عبّاد العربي النسب ـ بمباركة احتلال طليطلة والموافقة على ذلـك مسبقـاً، فكـان للقشتـاليين كلّ ما أرادوا وخـططوا، واتـخـذوا من طليطلة عاصمـة لهم ـ عام ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م ـ والتي طالما منّوا النفوس بتحقيق ذلك، وإعادة صولجاناتهم فيها، وتحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة جامعة لأفئدة كلّ مواطنيهم مضيّقين بذلك شقّة الخلاف فيما بينهم.

وأمّا القادر بطل عملية التسليم فإنه كوفىء بتنصيبه حاكماً على بلنسية بعد أن أدّى دوره بإخلاص وأمانة، فتقدّم إلى دويلته الموعودة محمولاً على خيل القشتالين وبمساعدتهم، وها

هو قد استعاد سلطته عليها بالقوّة، وتلاحق به اتباعه وأعداد من مواطنيه.

وضاعت طليطلة عندما أحب أهلها العيش الذليل تحت حكم المحتل الغاصب على الموت المشرّف بعزة وكرامة...

اختلفت المصادر في المعلومات التي ذكرتها حول سقوط طليطلة من حيث الكيفية التي تمّ فيها ضياعها، وفي العام الذي سقطت فيه بأيدي القوات القشتالية، إذ أن معظم المصادر قالت: إن سقوطها بأيدي جيش مملكة قشتالة وجليقية حدث عام ٤٧٨هـ(١١٧)، لكن ابن سعيد ذكر أن استيلاء الفونسو عليها تمّ في عام ٤٧٥هـ(١١٨)، في حين أن مصدراً آخر ذكر أن ذلك حدث عام ٤٧٧هـ(١١٩) وتفاوتت المصادر في أخبارها حول الكيفية التي تمّ فيها للغزاة الاستيلاء على طليطلة، فاكتفى بعض منها بالإشارة إلى أنّها سقطت بيد الأعداء عام ٤٧٨هـ(١٢٠)، في حين أن بعض المصادر ذكرت أن الفونسو بعد سبع سنوات من حصاره

(١١٧) ابن بسام، ق:٤، م:١، ص٦٨؛ ابن الكردبوس، م:١٣، ص٨٥؛ ابن الأثير، جـ١٠، ص١٤٢؛ المرّاكشي، ص١٢٦؛ ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق وتعليق: محمد محي الدين، جـ٤، ط١، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م، ص١٨؛ مؤلف مجهول، ذيل، ص٣٠٤؛ النويّري، جـ٢٣، ص٤٤٢؛ الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد، العبر في خبر من غبر، تحقيق: صلاح الدين المنجد، جـ٣، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت، ١٩٦٠-١٩٦٦م، ص٢٨٩؛ ابن الوردي، تتمّة، جـ١، ص٥٧٥؛ ابن الخطيب، ص٢٤٢؛ الحميري، ص١٣٥؛ ابن خلدون، م:٤، ص٣٤٧-٣٤٨؛ القلقشندي، صبح، جـ٥، ص٢٥٢؛ المقّري، نفح، جـ١، ص٤٤١، جـ٤، ص٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤؛ ابن أبي دينار، أبو عبدالله بن القاسم الرعيني، المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس، تحقيق وتعليق: محمد شمّام، ط٣، مطبعة ٢٠ مارس، تونس، ١٩٦٧م، ص١٠١؛ مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المرّاكشية، تحقيق: د. سهيل زكّار، ط١، نشر وتوزيع: دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٣٨.

(١١٨) ابن سعيد، جـ٢، ص١٣؛ وانظر المقّري، نفح، جـ٤، ص٣٥٢ فقد ذكر قولاً بأن سقوط طليطلة كان عام ٤٧٥هـ مع أنّه ذكر أن معظم المؤرخين قالوا إن سقوطها كان عام ٤٧٨هـ.

(١١٩) ابن أبي زرع الفاسي، أبو الحسن علي بن عبدالله، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٦٢م، ص١٤٤.

(١٢٠) المرّاكشي، ص١٢٦؛ الحميري، ص١٣٥ وذكر أنّها سقطت في شهر محرم من العام المذكور أعلاه؛ مؤلف مجهول، الحلل، ص٣٨؛ ابن أبي دينار، ص١٠١.

طليطلة تمكّن من الاستيلاء عليها[١٢١]، بينما اكتفت مصادر أُخرى بالقول إن الفونسو بعد أن اتسع نفوذه ودولته ضيّق الخناق على القادر بن ذي النون في طليطلة، ممّا مكّنه من الاستيلاء عليها سنة ٤٧٨هـ واشترط القادر على الفونسو مقابل التخلي عنها أن يساعده في الاستيلاء على بلنسية، فمكّنه الفونسو من تحقيق ذلك[١٢٢]، وفي قول إن القادر بعد أن استعاد طليطلة[١٢٣] بمساعدة الفونسو، قام بتسليمها له عام ٤٧٥هـ[١٢٤].

وقال النويّري: إن القشتاليين بقيادة الفونسو استولوا على طليطلة عام ٤٧٨هـ بعد حصار دام سبع سنوات[١٢٥]، ومن العوامل التي ساعدت ومهّدت لضياع طليطلة لجوء حاكم طليطلة القادر إلى طرق مختلفة للاستيلاء والحصول على أموال العامّة، وسوء الإدارة الذي اتصف به عهده، إذ تمّثل ذلك في استعمال رجال غير أكفياء لا يتصفون بالنزاهة ولا بالقدرة على شغل الأماكن والوظائف التي استعملوا عليها، أو السير بالسفينة الطليطلية إلى شاطىء الأمان[١٢٦]، ومن الأسباب التي أدّت في النهاية إلى ضياع طليطلة من أيدي المسلمين، العمليات العسكرية التي قامت بها القوات القشتالية، والتي سبقت مرحلة سقوط طليطلة، حيث أشير إليها بالقول إن القوات القشتالية استطاعت أن تستولي على الحصون والمواقع التابعة لطليطلة حصناً بعد حصن[١٢٧] وموقعاً بعد موقع، كناية عن السرعة التي تمّ فيها إنجاز تلك العمليات.

وهناك مصادر أوردت بعض المعلومات عن الكيفية التي تمّ فيها ضياع طليطلة من أيدي

---

(١٢١) ابن الأثير، جـ١٠، ص١٤٢؛ النويّري، جـ٢٣، ص٤٤٢؛ الذهبي، العِبر، جـ٣، ص٢٨٩؛ ابن الوردي تتمّة، جـ١، ص٥٧٥؛ المقّري، نفح، جـ٤، ص٣٥٢ (قول بعض المؤرخين) وبيّن أنّ ذلك كان في شهر محرّم. وذكر ابن الخطيب أن مدّة الحصار كانت ستة أشهر: ابن الخطيب، ص١٨١ وقوله هذا يشير إلى فترة الحصار المباشر والمستمرّ الذي فرضه الفونسو والذي أدّى إلى سقوط طليطلة.

(١٢٢) ابن خلدون، م:٤، ص٣٤٨؛ القلقشندي، صبح، جـ٥، ص٢٥٢؛ المقّري، نفح، جـ١، ص٤٤١.

(١٢٣) استعاد القادر حكمه في عاصمته عام ٤٧٤هـ: ابن بسام، ق:٤، م:١، ص١٦٢-١٦٣.

(١٢٤) ابن سعيد، جـ٢، ص١٣.

(١٢٥) النويّري، جـ٢٣، ص٤٤٢.

(١٢٦) المصدر نفسه، جـ٢٣، ص٤٤٢.

(١٢٧) المصدر نفسه، جـ٢٣، ص٤٤٢.

المسلمين، فقد ذكر ابن الكردبوس أن القادر بن ذي النون كتب إلى الفونسو وتخلّى له عن طليطلة وتوابعها مقابل مساعدته في الاستيلاء على بلنسية والمناطق القريبة منها، فإقدام القادر على هذا التصرّف كان بسبب طمع الطامعين في بلاده كابن عبّاد وابن هود، وكراهية أهل طليطلة له، حتّى أن بعضهم نزح إلى سرقسطة(١٢٨)، لهذا فقد انطلق الفونسو وعلى جناح السرعة إلى طليطلة فأخلى له القادر البلد، واشترط مسلموها أن يؤمّنوا على أنفسهم وذراريهم وأموالهم، وأن يمنحوا حرية البقاء في طليطلة والخروج منها، وأن لا يكلّف من رغب في البقاء في طليطلة إلّا دفع ضريبة من الأموال على عدد ما عنده من الأشخاص (الجزية على رؤوس المسلمين) وأن يبقى حق الذين رغبوا في الهجرة قائماً إذا ما قرّروا العودة، في عقاراتهم وممتلكاتهم، وأن لا يغمطوا منها شيئاً سواء أكان كثيراً أو قليلاً، فعاهد الفونسو مسلمي طليطلة على ذلك واقسم على احترام العهد المقطوع بين الجانبين عام ٤٧٨هـ(١٢٩).

وبالتدقيق في الرواية السابقة فإن اللافت للانتباه والجدير بالملاحظة هو أن القشتالين وافقوا على أن يمنح المواطنون حريّة البقاء في بلادهم أو الخروج منها، وأن يبقى حق مَنْ رغبوا في الهجرة منها قائماً إذا قرروا العودة إليها، ويكون لهم الحق في عقاراتهم وممتلكاتهم! ولكنّ الأمر الخطير كان قد تمثّل في الغاء حق هؤلاء المواطنين في وطنهم وممتلكاتهم، كما فقدوا حقّ السيادة فيه! فهل كان ذلك صدفة أم أنّه كان خطة مقصودة؟ كيف حدث ذلك وقد تمّ الاتفاق بضمانة سيّد الجزيرة الايبيرية، وامبراطور الملّتين النصرانية والإسلامية الفونسو!! وللتأكيد على ما نصّت عليه معاهدة التسليم والسلام، ولطمأنة المواطنين المتخوّفين من شروط المعاهدة كان قد أقسم على احترام العهد المبرم بين طرفي معادلة السلام! أما وقد وافق الغزاة على مبدأ حق العوة وحقّ ملكية العقارات والممتلكات الشخصية للمواطنين، فهل تمّ احترام تلك العهود والمواثيق أو تلك الحقوق؟! وهل أنّ تطبيق ما نصّت عليه اتفاقية التسليم على أرض الواقع كان معقولاً؟؟ أم أنّها مرحلة وخطوة لتنفيذ الاتفاق الذي سبق وأن عُقد بين الفونسو والقادر سرّاً قبل سنوات؟ والذي يُستشف من خلاله أن تهجير المواطنين كان من بنوده المكتومة، فالقشتاليون أرادوا البلاد دون سكّانها، والقادر سلّم البلاد ولكنه أراد بعض سكّانها لمساعدته في تكوين دولته الناشئة وإعادة ترتيب

(١٢٨) ابن الكردبوس، م:١٣، ص٨٤.

(١٢٩) المصدر نفسه، م:١٣، ص٨٥.

أوضاعها وضمان استقرارها وتقدّمها، وليحافظ قبل ذلك على موازين القوى بين السكان الأصليين والمهاجرين ليضمن سلطته واستمرار حكمه.

إن ما سبق يشبه إلى حدٍّ بعيد ما حدث لفلسطين المغتصبة عام ١٩٤٨م ولأهل فلسطين مع بعض الفوارق.. يعنينا منها في هذا السّياق أن الطليطليين قد حصلوا على حقّ العودة وحقّ ملكية عقاراتهم وممتلكاتهم في بلادهم وأنّهم مُنحوا حقّ الهجرة. ذلك الحقّ الخطير، أما الفلسطينيون فلم يمنحوا حقّ العودة أو حقّهم في ممتلكاتهم وعقاراتهم حينما احتلت بلادهم! فهل رجع مهاجروا طليطلة إليها على الرغم من العهود والمواثيق المقطوعة لهم؟ وهل عاد الفلسطينيون إلى أوطانهم؟

إن التشابه في كلتا الحالتين هو أن الشعبين لم يُعطيا الحق في العودة إلى بلادهم في الواقع، فلا الوطن عاد إليهم، ولم يعد لهم حق السيادة أو التصرّف في شؤونه!! ولكن هل أن حقّ السيادة وملكية الوطن يمكن أن تُعطى أو تُوهب أو تُهدى؟ أمّا ما حدث في فلسطين فما كان ليحدث إلّا عندما قامت امبراطورية الشرّ (بريطانيا) ـ الوصي المكلف بالتصرف في شؤون العالم الثالث ـ بمنح اليهود الحقّ في إقامة وطن قومي لهم فيها ذلك الوعد المشؤوم وعد بلفور عام ١٩١٧م، ولتثبيت جذورهم فيها فقد عمدت إلى سنّ القوانين والتشريعات الخاصة لإقامة ذلك الكيان الخطر المسموم في فلسطين قلب العروبة النابض من خلال هيئة الأمم المتحدة ـ وريثة عصبة الأمم ـ اللتين ما أنشئتا إلّا لتحقيق أهداف وأغراض الدول الغربية المنتصرة، بالسيطرة على مقدّرات الأمم المهزومة والهيمنة عليها وقهرها ونهب خيراتها.

أمّا الفارق بين الحالتين فإنّ طليطلة ضاعت إلى الأبد وضاع معها أهلها... أمّا فلسطين المغتصبة فإنّها ستعود إلى أهلها لا محالة وإنّها ستتحرر ـ بإذن الله في يوم من الأيّام وأرجو الله أن يكون قريباً ـ ومردّ ذلك إلى أسباب كثيرة أهمّها: ـ وعد الله ذلك الوعد الربّاني الذي لا يتخلّف **﴿فإذا جاء وعد الآخرة ليسُؤُا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أوّل مرّة وليتبروا ما علو تتبيرا﴾**(١٣٠)، فسنّة الله في حياة الأمم والدول والحضارات بموت حضارة أو دولة وتولّد أخرى حتميّة واقعية تتجسد دوماً على الأرض، إنّها **﴿سُنّة الله ولن تجد لسنّة الله تبديلا﴾**(١٣١).

---

(١٣٠) سورة الإسراء، آية ٧.

(١٣١) سورة الأحزاب، آية ٦٢.

أمّا فجر هذه الأُمّة فسيتولّد وسيكون انبعاثها من جديد ـ إن شاء الله تعالى ـ وسيتجدد وستعود لها سيادتها ولكنّها السيادة المتعقّلة هذه المرّة وليست السيادة المختلطة بشهوة الحكم وحبّ السلطة. ولكن، إنّ لذلك شروطاً وسنناً لا بدّ من تحققها وذلك بإيجاد الأجواء المناسبة وتهيئة المناخ والظروف الملائمة وتظافر كلّ الجهود والطاقات الكامنة لاستمطار الوعد الربّاني الحتمي الأكيد.. وتحقيقه في أرض الواقع..

ومن أسباب اختلاف المآل النهائي لفلسطين عن الأندلس أيضاً، الموقع الجغرافي إذ إن فلسطين تقع في منتصف الوطن العربي بينما تقع الأندلس في أقصى بقعة من شمال غرب العالم الإسلامي، بالإضافة إلى وجود فاصل بحري يفصلها عن جسم العالم الإسلامي، وتلاصق حدودها الشمالية مع فرنسا. كما إنّ فلسطين تختلف عن الأندلس من حيث أصل سكّانها، فأهل فلسطين يتحدّرون من سلالات عربية منذ القِدم.

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره فإنّ كياناً غريباً غاصباً يستحيل أن يعيش ويستمرّ في العيش أمداً طويلاً وسط الوطن العربي والعالم الإسلامي، مهما بلغت قوّة ذلك الكيان والقوى الداعمة له ومهما بلغ تخاذل الأُمّة ومهما بلغ تواطؤ قادتها مع الغزاة، فإنّ الأحداث التاريخية التي مرّت بفلسطين والمنطقة تقف شاهداً يؤكّد أنّ نهاية الغزاة أمر حتمي، فماذا كان مصير الحملات الصليبية التي تعاقبت على المنطقة عندما لاحت تباشير وحدة الأُمّة....؟

وقبل استكمال ما أوردته المصادر، فإن ما حدث في طليطلة وما ترتب عليه من نتائج وآثار، وما تكرر حدوثه بصور مشابهة أو أكثر وضوحاً كما حدث في غرناطة(١٣٢) مثلاً، وفي بقية مناطق الأندلس، يقود إلى طرح بعض التساؤلات التي تفرضها جسامة الأحداث وخطورتها وتشابهها مع ما جرى ويجري في منطقتنا إلى حدّ ما، فلا بدّ إذاً من الإشارة إلى بعضها وربطه بالأحداث المعاصرة التي مرّت بها أُمتنا أو قد تمرّ بها في المستقبل، ليتلمّس

---

(١٣٢) انظر: مؤلف مجهول (من رجال القرن التاسع الهجري معاصر لسقوط غرناطة)، آخر أيام غرناطة وهو كتاب نُبذةُ العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق وتقديم: د. محمد الدّاية، الطبعة الأولى، دار حسّان للطباعة والنشر، دمشق، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٦٥ـ١٤٣؛ انظر المقّري، أزهار، جـ١، ص٦٥ـ١٠٣؛ انظر المقّري، نفح، جـ٤، ص٥١١ـ٥٤٨؛ انظر عنان، محمد عبدالله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، وهو العصر الرابع من كتاب دولة الإسلام في الأندلس، ط٢، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٥٨م، ص١٤٦، ١٧٨ـ٢٧٣.

الناس أو مَنْ تعنيهم مثل هذه الأحداث طريقهم في مستقبل حياتهم وحياة أجيالهم القادمة من خلال كشف الغطاء ونزع الحجاب وإزالة الغشاوة عن أبصار مَنْ لم يستطع أن يربط أحداث اليوم بأحداث الأمس، فلم يجد له عبرة في تاريخ أجداده الطويل. فمن التساؤلات التي تُثار في هذا الموضوع مثلاً، هل يجوز ترك الأوطان والرحيل عنها بمجرّد اقتراب الأعداء منها أو الاستيلاء عليها؟ وأيّهما أفضل البقاء والتمسك بالأرض وتحيّن الفرصة المناسبة للمقاومة أم الهجرة طوعاً وتفريغ الأرض والوطن من أهله؟ وأيّ ذلك أفضل للأعداء والغزاة، أن يستولوا على الوطن والأرض شبه خالية أم عندما تكون عامرة بأهلها على المدى القريب والبعيد؟ فلماذا حدث هذا الخطأ القاتل الذي ارتكبه العرب والمسلمون حينما تركوا أوطانهم في الماضي والحاضر نهباً للمحتل الذي جاء يغصبهم أوطانهم وأموالهم ويهتك أعراضهم ويسومهم العذاب... فما هي خلفيات ذلك الحدث وما هي آثاره؟ وهل أنّ عادات الشعوب والأمم الحيّة وممارساتها في مثل هذه المواقف والإصرار على البقاء في أراضيهم والتمسك بالأوطان هي خفة وسفه أم أنها تجانب العرف والصواب..؟ لِمَ لم يهاجر الألمان - وغيرهم - من أوطانهم عندما تعرّضت أوطانهم لغزو خارجيّ أدّى إلى احتلالها بعد الحربين العالميتين في النصف الأول من هذا القرن؟ وأيّ الأمرين أفضل التمسك بالوطن والأرض مع الإصرار على التمسك بالهوية الوطنية والفكرية.. أم تركه للغزاة الغرباء؟ وهل يعتبر ترك الأوطان في ظروف الاحتلال موافقاً لعقيدتنا الإسلامية؟! وَلِمَ هذا الربط - المجانب للصواب - إنّه وبمجرّد استيلاء أو تقدّم الأعداء والغزاة إلى الوطن أو جزء منه تصبح الهجرة والنزوح والفرار بالنفس وترك الوطن هي الأصل، كما حدث في الأندلس وإبّان الغزوة الصليبية على منطقتنا، وكذلك الأمر في الحاضر في فلسطين وجنوب لبنان وأفغانستان وأذربيجان و..؟ لِمَ لم يبق وَلِمَ لا يبقى أهل البلاد والأرض متمسكين بأوطانهم، حتّى تخفّ وطأة هجمة الغُزاة ثم تبدأ بعدها عملية الردّ والهجوم المضاد من خلال مقاومتهم وإذابة عنفوانهم والنفّاذ إلى أعماقهم، وقهرهم، وخاصة أن الفكر الإسلامي قادر (وهذه حقيقة) على التصدّي للأعداء ولمبادئهم وأطروحاتهم وتطلّعاتهم مهما كانت، وقلبهم من منتصرين عسكرياً إلى مبهورين فمغلوبين ومدحورين فكرياً وحضارياً، وعندئذ مهزومين سياسياً وعسكرياً فمُقتَلعين نهائياً من البلاد إلى غير رجعه!!

وإذا كانت هناك بعض الشواهد أو النصوص في حالات معيّنة يفهم منها جواز الفرار أو النزوح عن الوطن عند تعرّضه للاحتلال، فهل من الصواب أو من روح الإسلام ومبادئه

أن يعمّم ذلك ويصبح هو الأصل؟ فأين هي إذن المصالح المرسلة لدرء الأخطار، وهي في مثل هذه الحالات والظروف أكثر وجوباً وأهمية وأشدّ خطورة، فالخطر كله يكمن في أن يترك المواطنون أوطانهم لقمة سائغة للأعداء دون منغّصات، بل عليهم أن يتشبّثوا بأوطانهم ويصبحوا خناجر مصوّبة إلى قلوب الغزاة أو حجارة هدفها رؤوس الأعداء وذلك أضعف الإيمان، كل ذلك حتّى يحولوا بينهم وبين أن يثبّتوا جذورهم في الأرض، وبعد ذلك يسهل على سكان الأرض الأصليين اقتلاع المحتلّين من جذورهم ورميهم وراء الحدود، وعندها ستكون المواجهة والتنافر والتصارع بين الطارىء والضارب جذوره في الأعماق حتّى ولو لم يكن بمستوى طول وعلّو الطارئين، لأنّ جذوره هي الأصل وهي المتشبّثة بالأرض المبثوثة في ثنايا البلاد، وبإمكانها تفويت الفرصة على وجود الطارئين ومنعهم من تثبيت أنفسهم في أعماق الوطن، حتّى يحين وقت اقتلاعهم نهائياً بعد ذلك. . ؟

ومن التساؤلات التي تلحّ على المتتبع والمعني بهكذا أُمور وأحداث وظروف: هل يجوز أن يبيع الشخص وطنه وأرضه وممتلكاته للأعداء والغزاة كالقشتاليين سابقاً واليهود لاحقاً؟! وهل من الحكمة أن يبيع الشخص والمواطنون عقاراتهم وأوطانهم أو أن يقبلوا ذلك، وخاصة إذا كانت الغزوة استيطانية، والغزاة طامعون حاقدون على بلادهم ولهم فيها مطامع ومزاعم. . ؟! وهل الوطن بمجمله سلعة تُباع وتُشرى؟ أم أنّه موقوف من الأصول إلى الفروع عبر الأجيال والقرون إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها؟ وهل يُقدّرُ ارث الاباء والأجداد بثمن مهما بلغ؟ وأين إذن الأمجاد والتاريخ والتراب المجبول بعرق ودماء (وعِظام) مَنْ سبقوا؟ وهل يستطيع (الإنسان) حقيقة أن يحيى حياة عزيزة وكريمة بعد أن يبيع وطنه؟! وهل يجوز أو يعقل أن يقبل الفرد أو الشعب الذي تحتل أرضه ويغتصب وطنه ثمناً لها، خاصة إذا كانت الهجمة هجمة استيطانية والأعداء حاقدون لهم مطامع في الوطن. . . ومزاعم؟!! وهل سيحظى بنظرة احترام وتقدير من الأمم والشعوب التي تحترم ذاتها وكرامتها؟ وما هو المصير الذي آلت إليه طليطلة والمصير الذي صار إليه مسلموها؟ هل كان من الحكمة والصواب وعين العقل أن يترك الطليطليون وطنهم بالسهولة التي تركوها؟ والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن لو أن مسلمي طليطلة بُعثوا وعادت بهم عقارب الزمان للوراء هم وساداتهم وكبراؤهم هل سيفعلون الفعل الذي فعلوه، ويقفون من الأحداث الموقف نفسه الذي اتخذوه. . ؟ أم أنّ الموقف سيكون مغايراً لما فعلوا؟! وكذلك الحال بالنسبة لبقية مدن الأندلس وأهلها في عصر الانقسام والتناحر، غرناطة وعربها مثلاً وعلى رأسهم مَنْ وقّعوا

على قرار تسليمها، أو ساهموا في مصيرها الذي آلت إليه[١٣٣]. . . ، هل سيعيدون الكرّة في اتّخاذ القرار والموقف نفسه؟ أم أنّهم سيحاولون السير بالسفينة إلى طريق آخر قد يكون أدّى بهم وأوصلهم إلى شاطىء الأمان؟! وفي مثل حالة أهل طليطلة وما آل إليه مصيرهم بعد استيلاء الغزاة عليها، هل من الحكمة والصواب أن ينسى مواطنوها بلادهم (أو ينسّوا) ذلك، ويقعدوا ويتقاعسوا عن العمل لاسترجاعها بكافة الوسائل المتوافرة والعمل على إيجاد وسائل أكثر فاعلية وجدوى، حتى لو كانت ظروفهم في مواطن استقرارهم الجديدة أحسن حالاً؟ أم أن الواجب الوطني والعقائدي يوجب عليهم ويلزمهم بضرورة البقاء في حالة غليان عاطفي، يليه استنفار لكافة الطاقات الماديّة والمعنوية المتاحة يؤهله لأن يكون في أعلى درجات الاستعداد والجاهزية المعنوية والماديّة بكافّة أنواعها وألوانها لتخليص الوطن الأصلي وتحريره؟ أمّا في حالة استيلاء الغزاة على الوطن أو أيّة بلاد عربية أو إسلامية، فلا بدّ عندئذ من التشبّث والتمسك بالوطن والتفاني في الدفاع عنه، حتّى لا يستمرىء المسلمون والعرب الهجرة من الوطن والنزوح عنه ثم نسيانه بعد سنوات أو عقود، بحجّة أن جميع البلاد العربية والأوطان الإسلامية هي أوطانهم، فتضيع بلادهم الأصلية وتضيع الأوطان تباعاً، وبالتالي تكرار عمليّة الهجرة والهجران، لأنّ مَنْ هان عليه هجر وطنه الأصلي ذات مرّة سيهون عليه هجران وطنه الجديد إذا تعرّض هو الآخر لغزو أو استولى عليه الأعداء مرّة بعد مرّة، وحتى لا تموت تلك القضية ويلفّها النسيان، ولإبقاء جذوة المطالبة بالوطن متّقدة بل وتغذيتها والعمل على تفعيلها إلى واقع ملموس على الأرض وليس في عالم الخيال، وتربية الأجيال على عدم استمراء العيش قبل أن يتم تحرير البلاد المغتصبة وإعادة الحق إلى أهله، لأنّ من واجبات الإنسان الحضاري والسويّ الدفاع عن حقوق الإنسان وعن المظلومين، والمحرومين منهم بشكل خاصّ، حتّى ينالوا حقوقهم ويصلوا إليها وتُردّ إليهم ظلاماتهم، ويُعتبر هذا التوجه من صُلب عقيدتنا الإسلامية، فكيف إذا كان الأمر واقعاً يعيشه المسلمون أو قسم منهم. .؟! وحتّى لا يكون العرب والمسلمون قدوة سيئة لغيرهم من الشعوب والأمم في مثل هذه الأمور فإن المطلوب منهم كثير كثير.

ورد عند ابن بسام أن اتفاقاً سريّاً عُقد بين الفونسو والقادر عام ٤٧٤هـ ـ عندما عاد القادر

(١٣٣) انظر نُبذة العصر، ٦٥-٦٧، ٧٧، ١٠٣، ١٧٧؛ انظر المقّري، نفح، جـ٤، ص٥١٧-٥٢٨؛ انظر عنان، نهاية الأندلس، ص١٤٦، ١٧٧-١٩٦، ١٩٩، ٢٠٩، ٢١١-٢١٤ وما بعدها، ٢٢٨-٢٤٣، ٢٤٩-٢٥٣.

إلى طليطلة بمساعدة الفونسو- تعهّد بمقتضاه القادر بعدم مقاومة أطماع الفونسو في الاستيلاء على طليطلة وأن يخلّي بينه وبينها، وأمّا الاتفاق الظاهر فكان الالتزام للفونسو بدفع مقادير كبيرة من الأموال، وتقديم رهائن للتوثق من تنفيذ الاتفاق(١٣٤).

اتبع القادر بعد عودته إلى طليطلة سياسة البطش والقسوة ضدّ أهل طليطلة ليتمكّن من جمع الأموال التي التزم بها للفونسو، ولقد أوصلت تلك السياسة أهل طليطلة إلى حالة الفوضى، وأثّرت تلك السياسة على رباطة الجأش والصلابة التي كان يتصف بها الطليطليون فأصبح الواحد منهم يرتاع من ظلّه(١٣٥)، حدث هذا في داخل البيت الطليطلي، أمّا الأحداث الخارجية فكانت عبارة عن بدء الفونسو اتّباع سياسة عسكرية ترمي إلى نسف مرافق وموارد طليطلة، والأخطر من ذلك قيامه بشنّ الهجمات على الطرقات وعلى المواطنين التابعين لطليطلة ومضايقتهم، بالأسر والتقتيل والإحراق والتمثيل، وأدّى هذا الوضع إلى ارتفاع الأسعار وخاصة المواد الغذائية، حيث أثّر ذلك على الشؤون الحياتية لأهل طليطلة وزاد في تفاقم الأزمة فيها، فشحّت الموارد والمصادر، وبلغ الرعب أعماق النفوس، وتغلغل الخوف في القلوب(١٣٦)، وممّا زاد الطين بِلّة في تلك الفترة العصيبة التي كانت تعيشها طليطلة المسلمة، تفشّي الآفات في محاصيل القمح الذي لم يخزّن بعد في الأماكن المعدّة لحفظه، علماً أن البرّ كان يبقى لفترات طويلة محفوظاً في اهراءات طليطلة دون أن يصاب بالتلف(١٣٧)!! هذه الأوضاع التي وصلت إليها حالة الطليطليين أدّت إلى فناء الكثير منهم بسبب القتل، وهجران بعضهم طليطلة، ولم ينج المهاجرون من أعمال مملكة قشتالة العدوانية كما هو الحال بالنسبة للباقين فيها(١٣٨).

وعندما وصلت الأمور في طليطلة إلى هذا الحدّ من الانهيار والضعف المعنوي والعسكري والسياسي والاقتصادي والغذائي بشكل خاص، بالإضافة إلى نزوح بعض أهل طليطلة عنها، أقدم الفونسو على القيام بتجهيز حملة للاستيلاء على طليطلة بعد أن مهّد السبل لمثل هذا العمل، فقام باختيار قوات منتخبة من فرسانه وهاجم المنيّة المسوّرة التي

---

(١٣٤) ابن بسام، ق: ٤، م: ١، ص١٦٢.

(١٣٥) المصدر نفسه، ق: ٤، م: ١، ص١٦٤.

(١٣٦) المصدر نفسه، ق: ٤، م: ١، ص١٦٤.

(١٣٧) المصدر نفسه، ق: ٤، م: ١، ص١٦٤؛ ابن غالب، م: ٤، جـ٢، ص٢٨٨.

(١٣٨) ابن بسام، ق: ٤، م: ١، ص١٦٤.

كانت عبارة عن قصر وحدائق للمأمون بن ذي النون جدّ القادر واستولى عليها، ولم تستطع القوات القشتالية المحاصرة لطليطلة تحقيق مكاسب تذكر باستثناء استيلائها على الحدائق المأمونية، وتدخّل فصل الشتاء كعامل مساعد إلى جانب المحاصرين في داخل المدينة، فحرم القوات القشتالية من وصول الميرة إليهم أو أيّة إمدادات أخرى، هذا الوضع عقّد الحالة بالنسبة للقوات الغازية لمدّة تزيد عن شهرين، بسبب طبيعة الشتاء القاسية التي قيدت حركة القوات المحاصرة، حتى إنهم لم يستسيغوا الشراب والطعام[١٣٩]، ومع كل ذلك تحمّل الفونسو وقوّاته شدّة العناء المتأتية من وجودهم في العراء لأسباب منها: شعور الفونسو بالقوّة نظراً لما كانت تتمتع به قواته من قدرات عالية في المعنويات والإمكانات، وقابل ذلك في الجانب الآخر حالة الضعف والخور الشديدين اللذين اتصف بهما الطليطليون في ذلك الزمان[١٤٠]، والأدهى من كلّ ذلك معرفته التامة أنه لا يوجد أملٌ لأهل طليطلة في النصرة من أحد من جيرانهم المسلمين، بسبب معرفته بحالة الضعف التي كان عليها حكام دويلات الطوائف الإسلامية، وطاعتهم له، وضعفهم عن مجابهته وهلعهم من التفكير بتقديم مساندة للمُحاصَرين[١٤١].

فلّما انقضى فصل الشتاء زحفت جموع القشتاليين وكأنّها سيل عرم عمّ السهل والوعر، وحلّ بطليطلة ليلها الطويل وأرخى سدوله على أجوائها، ليغيّب ذلك الليل شمس الإسلام عن طليطلة التي سطعت عليها منذ ما يقارب الأربعة قرون[١٤٢]، في ظلّ هذا الوضع كانت مداخلة الطليطليين للفونسو، فشرعوا في ذلك وهم متجلدون بالصبر على الرغم من كل ما نزل بهم، غير مبدين أيّة علامة للاستسلام، طمعاً في تغرير الفونسو وقواته ولو بأشياء لن تتحقق، ولكن الفونسو أصرّ على تسليم طليطلة، وتمادى في طلبه واستمرّ في عدوانه وعمليّاته لتحقيق هدفه، ممّا اضطرّ أهل طليطلة إلى إرسال وفد منهم لمقابلة الفونسو ومحاولة إضعاف عزيمته عن مواصلة الحصار والاستيلاء على المدينة ليعود إلى بلاده مقابل شروط تؤدّى إليه، إلاّ إنّ الورقة التي حاول الوفد الطليطلي أن يستعملها في مفاوضاته

---

(١٣٩) المصدر نفسه، ق:٤، م:١، ص١٦٤-١٦٥.

(١٤٠) المصدر نفسه، ق:٤، م:١، ص١٦٥.

(١٤١) المصدر نفسه، ق:٤، م:١، ص١٦٥، ١٦٦.

(١٤٢) إن طليطلة فُتحت عام ٩٣هـ، وإن سقوطها حدث عام ٤٧٨هـ لذلك وبإجراء عملية حسابية بسيطة يتضح إن الحكم الإسلامي لطليطلة استمرّ ٣٨٥ سنة: أبو سلّوح، ص٣٩٦.

والتي اعتقدوا أنّها لصالحهم، كانت تتمثّل في محاولة إيهام الفونسو أن المساعدات ستأتي لأهل طليطلة من قِبَل جيرانهم من دويلات الطوائف الذين سيهبّون لنجدتهم، وذكروا بعض الأسماء كابن عبّاد، ولكن ما راهن عليه الوفد الطليطلي كان في حقيقة الأمر ورقة بيدي الفونسو، إذ إنّ الفونسو هزىء من الوفد الطليطلي بعد أن أبقاهم فترة ينتظرون السماح لهم بمقابلته، وجعلهم في الوقت نفسه يسخرون من أنفسهم عندما طلب وبكل عجرفة وكِبر أن يؤتى برسل حكام دول الطوائف الواحد تلو الآخر وعلى رأسهم رسل ابن عبّاد بطريقة مهينة، ومعهم الهدايا والأموال لتقديمها له، بعد بقاء تلك الوفود فترة طويلة وهم ينتظرون السماح لهم بالمثول بين يدي الفونسو لتقديم ما معهم، ولكن الفونسو رمى تلك الهدايا والأموال، وأمر بإخراج الرسل بطريقة ذليلة، كان كل ذلك على مشهد ومسمع الوفد الطليطلي، فأسقط في أيديهم وذهلوا ممّا رأوا، ونزل ما سمعوه على نفوسهم كالصاعقة المدمّرة، ممّا كان له أسوأ الأثر على نفوسهم، فسلّموا المدينة بعد ثلاثة أيّام من ذلك اللقاء[١٤٣]. فحريّ بشخصية كشخصية الفونسو التي كان يقدّم لها الأندلسيون الهدايا والأموال وهي على وشك الاستيلاء على منطقة من أهمّ المناطق الأندلسية، أن تتحمل ليس برد فصل شتاء واحد بل هي على استعداد لأن تنتظر فصولاً، لأنّها كانت على إدراك تام بالمدى الذي ستتمكن فيه المدينة من الصمود لمعرفتها التامّة أنّ جيران طليطلة المسلمين الذين كانوا من الممكن أن يشكلوا خطراً على مخططاتها لن يفعلوا شيئاً لها لأن رسل قادتهم ومبعوثيهم كانوا ينتظرون لحظة السماح لهم للمثول بين يديها.

وذكرت بعض المراجع أن كل المحاولات التي بذلت لإجراء مصالحة مع الفونسو ذهبت أدراج الرياح، سواء من جانب القادر للاعتراف بطاعته والحكم باسمه وتأدية أموال مفروضة عليه، أو من جانب رجالات وقيادات طليطلة[١٤٤]، وأخيراً رضخ أهل طليطلة لتسليم المدينة مقابل عرض قدّموه بمطالب منها: أن يحتفظ المسلمون بمسجدهم الجامع، وأن يتعامل المسلمون وفقَ شرائعهم ويطبّق عليهم أحكامها قضاة منهم، وأن

---

(١٤٣) انظر ابن بسام، ق: ٤، م: ١، ص١٦٥-١٦٧؛ وانظر ابن الخطيب، ص١٨١-١٨٢.

(١٤٤) انظر أشباخ، ص٥٩؛ عنان، دول، ص١١١. ورد في الذخيرة قول لابن بسام يُفهم منه إن سسندو عرض على الفونسو فكرته المتمّثلة في إبقاء ابن ذي النون كعامل للفونسو على طليطلة... ولكنّ الفونسو رفض ذلك: ابن بسام، ق: ٤، م: ١، ط١٩٤٥م، ص١٣١.

يتسلّم الفونسو سائر القلاع والحصون المهمة والقصر الملكي، وهكذا فإن طليطلة استسلمت في ٢٧ محرّم سنة ٤٧٨هـ الموافق ٢٥ أيّار من عام ١٠٨٥م[١٤٥].

(١٤٥) انظر أشباخ، ص٥٩؛ وانظر عنان، دول، ص١١١-١١٢ وقد ذكر أن الفونسو دخل طليطلة في ٢٥ أيار من عام ١٠٨٥م، الموافق لبداية شهر صفر من عام ٤٧٨هـ.

مشاهد من اللحظات الأخيرة في طليطلة

نعم لقد استسلمت طليطلة، فها هي القوات القشتالية وبقيادة الملك الفونسو تتأهب ثم تتقدم إلى العاصمة لدخولها وتسلّم مرافقها، في هذه اللحظات كان الذهول والألم والحسرة والحيرة والخوف منن اللحظات القادمة ومن المستقبل يخيّم على العاصمة وعلى جلّ سكّانها، فقد بدأ المهاجرون أو مَنْ عزموا على ترك الوطن أو المترددين والذين بدأوا يتخذون للأمر عدّته تحسباً لما سيحدث في مثل هذا الظرف العصيب والحدث الجسيم، ومن وسط هذه الصور والمشاهد ظهرت مقدّمات جحافل القشتاليين بالدخول إلى العاصمة وتمركزها في المناطق الهامة والحساسة في طليطلة... فبدأت الكتل البشرية بالدخول إلى العاصمة في مواكب وضجيج يثير الفزع والرعب رافعين أعلامهم وبيارقهم، في الجانب الآخر يتأهب قسم من المواطنين للرحيل، أو كأنّه قد بدأ ذلك في ظلّ هذه الظروف والصور والمشاهد المختلفة المروّعة والمحزنة للمواطنين والمفرحة للغزاة وأعوانهم، وظهر القادر بالله حاكم طليطلة السابق على أقبح صوره وأفظع سيرة، بدى وكأنه لا يعنيه ما يدور حوله أو كأنه لم يكن في تلك البقعة من المعمورة حينئذ، وكم كانت دهشة مواطنيه واستغرابهم واحتقارهم له وغيظهم منه، وخاصة الذين رأوه في تلك اللحظات، فقد رأوه وبيده اسطرلاب ينظر إليه ويحرّكه ليرى الوقت المناسب للخروج من مملكته ـ التي أضاعها وسلّمها وشتّت سكّانها ـ إلى عرشه الموعود، فتعجّب منه المسلمون والحسرة والغيظ تنهشان منهم النفوس والقلوب والوجدان، أمّا الغزاة، فقد ضحك منهم مَنْ رآه على تلك الحالة وفي ذلك المشهد والصورة، وتندّروا بها، ففرحتهم زادتها تلك المشاهد، أمّا المشهد النقيض لما حدث في ذلك اليوم نفسه الذي دخل فيه الغزاة المنتصرون إلى العاصمة وفي داخل المسجد الجامع، فهو أن الاستاذ الشيخ المغامي قد ذهب إلى المسجد الجامع والألم يعتصر فؤاده، فدخل إليه ووجهته إلى زاويته وركنه الذي كان يعلم فيه تلاميذه ومريديه، فصلّى فيه ما شاء له الله أن يصلّي وكان أحد مريديه الذي قاده إلى المسجد الجامع قريباً منه يحملق ويحدّق في جنبات المسجد وسقفه دون أن يركّز بصره، فعيناه زائغتان من الحزن والألم والدهشة،

وقد اغرورقتا بالدمع في هذا الوضع بالذات وفجأة يسمع صوت شيخه آمراً إيّـاه (قائلاً له): اقرأ.. فهزّه الصوت ولكنّه امتثل لأمر شيخه وأستاذه، فكأنّ الشيخ أراد أن يكون في تلك اللحظات في عالم مختلف عمّا يدور ويجري خارج المسجد، فالتعليم يجب أن يستمرّ في المسجد الجامع لأنّه طريق للخلاص من الأميّة السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية، وبعد هنيهة يُسمع ضجيج وصخب وصوت أقدام تقترب من بوابة المسجد الجامع.. استمرّ الشيخ وتلميذه فيما هما فيه، ودخل جمع من القشتاليين وتكاثروا وحاولوا العبث وإزالة بعض الموجودات الدالة على إسلاميّة وعروبة المسجد الجامع، ولكن ما جسر أحد منهم على إزعاج الشيخ ولا معارضته وهم مشدوهين، وقد تملّكهم الإعجاب والتقدير لشجاعة ذلك الشيخ ولما هو فيه، والذي كان يختلف اختلافاً جوهرياً عمّا رأوه وشاهدوه من بعض جموع المواطنين أو من رجالات السلطة السابقة في طليطلة وعلى رأسها القادر وحاشيته. ولمّا أطال وبعد أن أطاف به جمع الغزاة «فكلّما قالوا له عجّل أشار هو إلى تلميذه بأن أكمل إلى أن أكمـل القـراءة ثم قام ما طاش ولا تهيّب فسجـد به واقترب، وبكى عليه مليّاً وانتحب، والنصارى يعظمون شأنه ويهابون مكانه، لم تمتد إليه يد، ولا عرض له بمكروه أحد...»[١٤٦].

وبالرجوع إلى ما ذكرته بعض المصادر السابقة، يمكن القول أن سقوط طليطلة: حدث عام ٤٧٨هـ، نظراً لقول غالبية المصادر ذلك، وبسبب ذكر المصادر أن موقعة الزلاّقة[١٤٧]، حدثت في العام التالي لسقوط طليطلة، أيّ في عام ٤٧٩هـ[١٤٨]، وكذلك بسبب قول أحد

(١٤٦) ابن بسام، ق:٤، م:١، طبعة ١٩٤٥م، ص١٣٠، ١٣٢.

(١٤٧) الزلاّقة: موضع من إقليم بطليوس في غرب الأندلس، التقى فيه المسلمون بشقيّهم المغاربة وأهل الأندلس مع قوات الممالك النصرانية بقيادة الفونسو في شهر رجب سنة ٤٧٩هـ: الحمري، ص٨٣. وذكر ابن خلكان أن الزلاّقة منطقة كانت تابعة لبطليوس: ابن خلكان، جـ٤، ص١٢٠؛ وقال صاحب كتـاب الحلل المـوشية إن الزلاّقة تقع على مقربة من بطليوس: مؤلف مجهول، الحلل الموشية، ص٥٧. وذكر أشباخ أن اسم المكان حسب الروايات النصرانية سكر الياس (Scralas): أشباخ، ص٨١.

(١٤٨) المقّري، نفح، جـ٤، ص٣٥٤ (قول ابن علقمة). وورد عند ابن خلكان أن أخذ طليطلة كان في شهر صفر سنة ٤٧٨هـ. بينما وقعت معركة الزلاّقة في ١٠ رمضان من عام ٤٧٩هـ على رأي، في حين أن المؤلف مال إلى أن ذلك حدث في منتصف شهر رجب من السنة نفسها: ابن خلكان، جـ٤، ص١١٨، ١٢٠؛ النويّري، جـ٢٣، ص٤٥٨ قال إن معركة الزلاّقة حدثت بعد سقوط طليطلة بعام،

المصادر إن القادر استعاد طليطلة في يوم عيد الأضحى من عام ٤٧٤هـ[١٤٩]، أيّ في أواخر السنة المذكورة لأنّ عيد الأضحى يصادف اليوم العاشر من شهر ذي الحجة من كلّ عام، لذلك ولكون طليطلة لم تكن قد وصلت إلى درجة الضعف الشديد في عام ٤٧٥هـ[١٥٠]، إذ لا يعقل أن يأتي القادر لمدّة أشهر ثمّ يسلّمها للفونسو، ولقول مصادر أخرى إن استيلاء الفونسو على طليطلة كان بعد حصار دام سبع سنوات[١٥١]، ومن المعروف أن القادر أُخرج من طليطلة عام ٤٧٢هـ وإنه استعان بالفونسو لاستعادة عرشه في طليطلة، وإن الفونسو قام بمساعدته وتمكّن القادر من العودة إلى طليطلة بعد حصار شديد من الفونسو الأمر الذي اضطرّ عمر بن الأفطس إلى مغادرتها بعد عشرة أشهر قضاها في حكم طليطلة، ولهذا يمكن القول إن الحصار الذي أشارت إليه المصادر على أنه دام سبع سنوات إنّما قُصِدَ فيه الحصار والمعارك والمواجهات التي بدأت منذ خروج القادر من طليطلة عام ٤٧٢هـ، لذلك فإنه على حسب رأي المصادر التي ذكرت أن حصار طليطلة دام سبع سنوات يكون سقوطها عام ٤٧٨هـ وليس عام ٤٧٥هـ.

أيّ عام ٤٧٩هـ في العاشر من شهر رمضان، الذهبي، العبر، جـ٣، ص٢٨٩، ٢٩٣ وذكر أن المعركة كانت بعد عام من سقوط طليطلة في عام ٤٧٨هـ؛ ابن الخطيب، ص٢٤٢، ٢٤٥، ٢٤٦ وقد ذكر أن سقوط طليطلة كان عام ٤٧٨هـ وأن المعتمد ذهب إلى يوسف بن تاشفين سنة ٤٧٨هـ، علماً أنه راسله قبل ذلك في السنة نفسها في شهر جمادى الأولى، وسلّم المعتمد الجزيرة الخضراء إلى يوسف بن تاشفين عام ٤٧٩هـ في شهر ربيع الأوّل، وبعد ذلك جرت موقعة الزلّاقة؛ الحميري، ص٨٣ وقال إن الموقعة حدثت في ١٢ رجب من عام ٤٧٩هـ، وقال صاحب كتاب الحلل الموشيّة، ص٣٨ إن سقوط طليطلة كان عام ٤٧٨هـ، وإنّ معركة الزلّاقة حدثت عام ٤٧٩هـ.

(١٤٩) ابن بسام، ق:٤، م:١، ص١٦٢-١٦٣.

(١٥٠) ذكر ابن سعيد أن القادر سلّم طليطلة إلى الفونسو عام ٤٧٥هـ، ممّا يوحي وكأنّ طليطلة قد وصلت إلى حالة من الضعف والانهيار حيث تمّ تسليمها بكل سهولة ودون مقاومة: ابن سعيد، جـ٢، ص١٣؛ المقّري، نفح، جـ٤، ص٣٥٢ علماً أن الفونسو لم يتمكّن من الاستيلاء عليها عام ٤٧٨هـ إلّا بعد جهد وحصار شديد قضى خلاله فصل الشتاء وهو قائمٌ على حصارها.

(١٥١) ابن الأثير، جـ١٠، ص١٤٢؛ النويّري، جـ٢٣، ص٤٤٢؛ الذهبي، العِبر، جـ٣، ص٢٨٩؛ ابن الوردي، تتمّة، جـ١، ص٥٧٥؛ المقّري، نفح، جـ٤، ص٣٥٢ (قول بعض المؤرخين). كما أن ابن الخطيب ذكر أن الفونسو لم يتمكّن من الاستيلاء على طليطلة إلّا بعد حصارها لمدّة ستة أشهر: انظر ابن الخطيب، ص١٨١، كما أن ابن خلكان ذكر أن طليطلة لم تسقط إلّا بعد محاصرتها حصاراً شديداً: ابن خلكان، جـ٤، ص١١٨.

أسباب السقوط:-

ممّا سبق يمكن تلخيص الأسباب التي أدّت إلى سقوط طليطلة إلى أسباب مباشرة، وأسباب غير مباشرة: أمّا الأسباب المباشرة فتعود إلى: ضعف شخصية القادر يحيى بن ذي النون وعدم مقدرته على تسيير شؤون دولته، ممّا ساعد على طمع الطامعين بالمناطق التابعة له كابن عبّاد وابن الأفطس والممالك النصرانية وخاصة مملكة قشتالة، والسياسة التي طبّقها القادر على أهل طليطلة عندما استعاد طليطلة عام ٤٧٤هـ، والتي يمكن وصفها بسوء الإدارة المالية والإدارية، ممّا كان له الأثر الكبير على معنويات المواطنين وإيصال طليطلة إلى حالة متردية من الضعف والانهيار السياسي والاقتصادي والمالي، حيث أنه التزم لمملكة قشتالة بأداء مبالغ كبيرة لقاء حمايتهم له من أعدائه في الداخل والخارج[١٥٢]، ممّا جعله يقوم بفرض ضرائب كبيرة على المواطنين لسدّ احتياجاته ومتطلباته والتزاماته، بالإضافة إلى الفساد الإداري الذي اتصف به عهده، والذي أشار إليه أحد المصادر بأنّه لم يكن يضع الرجل المناسب في المكان المناسب[١٥٣]، وسياسته تلك جعلت شعبه في طليطلة يناصبه العداء، حتى أنهم اضطرّوه عام ٤٧٣هـ إلى الفرار منها، ولم يستطع العودة إليها إلّا بمساعدة القوات القشتالية.

ولذلك ما أن تقدّمت الجيوش القشتالية للاستيلاء على طليطلة عام ٤٧٧هـ[١٥٤]، حتّى

---

(١٥٢) الصنهاجي، ص٧٧.

(١٥٣) النويّري، جـ٢٣، ص٤٤٢.

(١٥٤) والذي دعاني إلى القول إن بداية حملة الفونسو على طليطلة كانت عام ٤٧٧هـ، ذِكرُ بعض المصادر أن سقوطها كان عام ٤٧٨هـ في شهر محرّم، وذِكرُ مصادر أُخرى أن ذلك كان في شهر صَفر من العام نفسه: واختلفت المصادر التي قالت إن سقوطها كان في شهر محرّم، فالحميري والمقّري في روايتهما عن بعض المؤرخين قالا: إن سقوطها حدث في منتصف شهر محرّم: الحميري، ص١٣٥؛ المقّري، نفح، جـ٤، ص٣٥٢، لكنّ رواية المقّري الثانية عن ابن علقمة جعلت سقوطها في العاشر من شهر محرّم: المقّري، نفح، جـ٤، ص٣٥٤. كما أن المؤرخ الألماني أشباخ ذكر أن سقوطها حدث في ٢٧ محرّم الموافق ٢٥ أيّار من عام ١٠٨٥م: أشباخ، ص٥٩. في حين إن ابن خلكان ذكر أن سقوطها وقع في بداية شهر صَفَر من عام ٤٧٨هـ: ابن خلكان، جـ٤، ص١١٨. وكذلك بسبب ذكر ابن بسام أن الفونسو حاصر طليطلة حيث أن فصل الشتاء مرّ على قوات قشتالة وهي مقيمة على حصار طليطلة، وبعد فترة من مضي فصل الشتاء استطاع الفونسو الاستيلاء على المدينة: ابن بسام، ق: ٤، م: ١، ص١٦٤-١٦٥. وكذلك بأخذ ما ذكره ابن الخطيب بعين الاعتبار،

تخلخلت الجبهة الداخلية، إذ إن القادر لم يكن رجل المرحلة الذي بإمكانه جمع شمل مواطنيه حوله للتصدّي للقوات المعتدية لأنه لم يكن يتمتع بثقة شعبه، ولم يكن المواطنون مقتنعين بشخصه للالتفاف حوله كرمز للدفاع عن الوطن تحت قيادته لأنّه لم يكن يحظى بتقدير وحبّ شعبه فيستطيع بتلك المقوّمات تغيير مجرى الأحداث والمعارك فيقلبها لصالحه ولصالح شعبه من خلال إيجاد عزم وتصميم وخلق روح معنوية جديدة دفاقه للصمود في وجه القوات المعتدية مهما كان عددها وعدّتها، لأنّ ذلك ممكن بالنسبة لأهل طليطلة لو أنّه جعلهم يلتفّون حوله من خلال اتّباع سياسة حكيمة عادلة نال من خلالها حبّ شعبه ورضاه. فحالة الكراهية بين الحاكم وشعبه تؤدي إلى انهيار الدولة، وخاصة عند تعرّض البلاد لهزة عنيفة.

ويمكن تفسير الخلل والتفكك اللذين أصابا جبهة طليطلة الداخلية على النحو التالي: عدم أهلية القيادة في طليطلة وعدم تمتعها بحبّ مواطنيها، ولا بد كذلك من الأخذ بعين الاعتبار أن بعض سكان المدينة كانوا متعاطفين مع القوات القشتالية النصرانية الغازية مساندين لها لأنها أقرب إليهم - من وجهة نظرهم - من مسلمي طليطلة من حيث المعتقد[١٥٥]...

ومن الأسباب المهمّة التي أدّت إلى سقوط طليطلة بأيدي القوات القشتالية، العمليات العسكرية التي قام الفونسو السادس بشنّها على المناطق الطليطلية وإلحاقه الأضرار والخراب بالاقتصاد الطليطلي وبالمناطق التابعة لها، وإلحاقه الأذى بالمواطنين التابعين لطليطلة خلال السنوات الأخيرة من حكم القادر[١٥٦]، الأمر الذي أوصل طليطلة إلى حالة

ذلك أن حصار الفونسو لطليطلة استمرّ ستة أشهر: ابن الخطيب، أعمال، ص١٨١. لذلك كلّه يمكن القول إن الحصار الأخير الذي سقطت بسببه طليطلة كان قد بدأ عام ٤٧٧هـ، لأن سقوطها لا يمكن أن يكون قد تمّ خلال شهر واحد وهو شهر محرّم الشهر الأول من عام ٤٧٨هـ، إذ من الواضح أن الحصار كان قد ضُرب في العام السابق للعام الذي سقطت فيه. وممّا يعزز ذلك قول أحد المراجع أن الحصار دام تسعة أشهر: عنان، دول، ص١١١. وتأكيده أن خريف عام ٤٧٧هـ كان بداية الحصار الذي فُرض على طليطلة: عنان، دول، ص١١٠.

(١٥٥) أبو ملّوح، ص٤٠١.

(١٥٦) ابن بسام، ق:٤، م:١، ص١٦٤؛ ابن الكردبوس، م:١٣، ص٨٣؛ النويّري، جـ٢٣، ص٤٤٢.

من التردّي والضعف السياسي والاقتصادي والعسكري والمعنوي، وأدّى ذلك في النهاية إلى ارتفاع المعنويات القشتالية وتأجيجها لمحاربة مسلمي الأندلس، ومن الآثار التي خلّفتها تلك الهجمات الاستيلاء على مناطق متعددة من البلاد التابعة لطليطلة (كحصون سرية وقورية وقنالش)، وقد كان للثورات الداخلية في طليطلة أثر واضح في تفكيك الجبهة الداخلية وإضعافها من جهة، وخسارة تلك المناطق بالتخلي عنها للقوات القشتالية مقابل مساعدتها في إخماد الثورات الداخلية أو التصدّي لأطماع دول الطوائف في المناطق الطليطلية من جهة أخرى.

ومن الأسباب غير المباشرة لسقوط طليطلة قيام مملكة ارغون ونبّرة بشنّ هجمات عسكرية على المناطق الطليطلية، الأمر الذي نتج عنه خسارة طليطلة لبعض مناطقها (كشنتبرية وملينة)، كما أن الثورات الداخلية في مدينة طليطلة منذ مقتل ابن الحديدي وما تبع ذلك من أحداث إلى أن أدّت الأحداث إلى فرار القادر من طليطلة عام ٤٧٢هـ، كانت أحد العوامل الرئيسة التي لعبت دوراً مؤثّراً في سقوط طليطلة. فهدر الطاقات الداخلية بالإضافة لما أحدثته عمليات القتل من انقسامات وعداوات داخلية كفيلة بتفتيت الجبهة الداخلية وتعريض أمن الدولة للخطر وخاصة أمن طليطلة العاصمة بالذات، فطليطلة كانت تضمّ الجميع، إلاّ أن قلوبهم كانت متفرقة، وأيديهم موجّهة ضدّ بعضهم ولم تكن متحدة في وجه الأخطار المحدقة بهم. ومن المؤشّرات الدالّة على الانقسامات الطليطلية نزوح بعض أهل طليطلة عنها، وقد ذكر أن قسماً منهم ذهب إلى سرقسطة(١٥٧)، ويتضح ذلك أيضاً من خلال مراسلة أهل طليطلة لابن الأفطس للقدوم إلى طليطلة نظراً لما قدّمه القادر من تنازلات للقشتاليين، الأمر الذي اضطر القادر إلى الخروج من طليطلة عندما شعر بذلك(١٥٨)، ومن الإشارات التي يستشف منها الوضع العام في داخل طليطلة عندما بدأت المفاوضات مع الفونسو هي: وجود أغلبية عامّة من مسلمي طليطلة أرادت التسليم نظراً لما لحقها من جرّاء الحرب، وهي أيضاً تشمل العناصر التي كانت غير مستعدّة للتضحية ولا يهمّها الأمر كثيراً، وهناك قلّة أرادت القتال والصمود إلى آخر قطرة من دمائهم ولكنّهم ضاعوا في خِضَمِ أصوات العامة وأصوات المتخاذلين(١٥٩)، وهناك موقف أهل الذمّة اليهود

---

(١٥٧) ابن الكردبوس، م: ١٣، ص٨٤.

(١٥٨) المصدر نفسه، م: ١٣، ص٨٢-٨٣.

(١٥٩) أشباخ، ص٥٩؛ عنان، دول، ص١١١.

والنصارى الذي كان كالتالي: فاليهود غير مكترثين بالأمر ولا يعنيهم الغالب كثيراً فإنّهم سيكونون إلى جانبه في نهاية المطاف، أمّا النصارى فهم ميّالون للقوات القشتالية ولا شك.

ومن العوامل الأساسيّة التي أدّت إلى سقوط طليطلة أيضاً حالة الفوضى والحروب التي أعقبها تفرّق مسلمي الأندلس إلى دويلات متناحرة متصارعة لها جيوشها وقياداتها المتفرقة، وكانت كل منطقة تودّ لو أنّها تقضي على المناطق الأخرى، وأورثت هذه الحالة الانقسامات التي بدأت منذ بداية القرن الخامس الهجري بسبب الصراع على الحكم في قرطبة والذي أدّى منذ ذلك الوقت إلى استمراء المسلمين دفع الأموال وتقديم الهدايا وتسليم الحصون للأعداء والاستعانة بهم(١٦٠)، ومنذ ذلك الحين بدأت تدب في كيان الممالك النصرانية معنويات جديدة وروح عالية لمحاربة المسلمين وقابل هذه الحالة سريان روح الضعف في صفوف المسلمين ونفوسهم. فتفرُّقُ الأندلس أدّى في النهاية إلى سقوط مناطقها الواحدة تلو الأخرى بسبب انفراط العقد الذي كان يجمعها، ويشكل منها قوّة ضاربة تحمي وحدتها من الأعداء، وكان سقوط طليطلة أبرز مثال نتج عن تفرّق الأندلس شيعاً وأحزاباً، بعد أن كانوا يلتقون تحت راية وحدة الأندلس الموحّد، إذ إن التفرق شجّع قيام الممالك النصرانية بشنّ حروب مدمّرة ضد دول الطوائف وخاصة دولتي سرقسطة وطليطلة، وكذلك الاستيلاء على مناطق من دولة بطليوس مثل مدينة قلمرية عام ٤٥٦هـ(١٦١).

ومن الأمور التي دعّمت وجود الممالك النصرانية دفع الأموال والضرائب لهم من قبل دويلات الطوائف، فقد ذكرت بعض المصادر إن دويلات الطوائف كانت تؤدي إلى مملكة

---

(١٦٠) ذكر النويّري أن المأمون يحيى بن ذي النون التزم بأداء مبالغ من المال إلى مملكة قشتالة كل عام، واضطر للتنازل عن حصون من دولته، طالبه بها النصارى فنفّذ: انظر النويّري، جـ٢٣، ص٤٤١. وذكر الصنهاجي أن يوسف بن تاشفين أوصى أمراء الطوائف في الأندلس بعد انتصاره في موقعة الزلّاقة بالاتفاق والتوحّد، لأنّ الأعداء لم يتمكّنوا منهم إلّا بسبب تفرّق كلمتهم واستعانةِ بعضهم بالأعداء ضد إخوانهم: الصنهاجي، ص١٠٦؛ وانظر أبو ملّوح، ص٣٢٤-٣٣١، ٣٦٢-٣٧٢، ٣٩٠، ٣٩٤، ٣٩٦-٣٩٧.

(١٦١) ابن عذاري، جـ٣، ص٢٣٨، ٢٥٣؛ ابن الخطيب، ص١٨٤. وذكر ابن الكردبوس أن الملك فرديناند استولى على حصون كثيرة من دولة بطليوس في غرب الأندلس: ابن الكردبوس، م:١٣، ص٧٦. وضبط الحميري الاسم كالتالي قُلُمْرِيَّة، وتقع ببلاد برتقال من الأندلس (برتغال) الحميري، ص١٦٤.

قشتالة ضرائب مالية كل عام[١٦٢]، وتأدية الأموال إلى الممالك النصرانية أضعف الدويلات الإسلامية من جانب، وأضعف شعوبها نتيجة فرض ضرائب جديدة عليهم للتمكّن من دفع الأمـوال للدول المعادية، وفي الوقت نفسه ساعد وقوّى الممالك النصرانية وخاصة مملكة قشتالة في حربها ضد المسلمين من جانب آخر، الأمر الذي أدّى إلى سقوطها نتيجة لنموّ قوة الفونسو وتزايدها وتراجع قوّة طليطلة وضعفها.

كلّ ذلك أدّى في النهاية إلى ضياع الأندلس، ومن الشواهد المضحكات المبكيات ذلك النمط من القادة الذين انتزوا على حكم البلاد وإداراتها، مثل حسام الدولة يحيى بن

---

(١٦٢) إن خطة الفونسو كانت ترمي إلى جباية الضرائب السنوية من دول الطوائف وخاصة طليطلة لإضعافها قبل أن يُقدِم على منازلتها للاستيلاء عليها: الصنهاجي، ص١٠١، ١٢٥؛ وقال ابن عذاري: إن مسلمي الأندلس كان ضعفهم يزداد، (في حين إن عدوّهم كان يزداد قوّة)، بسبب النزاع بين أمرائهم، الأمر الذي مكّن النصارى من الاستيلاء على بلادهم بعد أن ملّ من أخذ (الجزية) منهم، إذ لم يعد يقنعه شيء إلّا الاستيلاء على البلاد: ابن عذاري، جـ٣، ص٢٣٩. كما بيّن المصدر نفسه أن ابن الأفطس كان من أواخر أمراء الثغور الإسلامية الذين التزموا بأداء أتاوة سنوية للملك فرديناند: المصدر نفسه، جـ٣، ص٢٢٩؛ ابن الأثير، جـ١٠، ص١٤٢ وذكر أن المعتمد كان يؤدي ضريبة سنوية لقشتالة، وإن المسلمين بشكل عام كانوا يدفعون الضرائب السنوية للممالك النصرانية: المصدر نفسه، جـ١٠، ص١٥١؛ كما أن النويّري ذكر أن المأمون بن ذي النون التزم لمملكة قشتالة بدفع مقادير من المال كل عام: النويّري، جـ٢٣، ص٤٤١، كما ذكر المصدر نفسه أن المعتمد كان ملتزماً بدفع ضريبة مالية سنوية للفونسو عندما استولى الفونسو على طليطلة عام ٤٧٨هـ: المصدر نفسه، جـ٢٣، ص٤٥٣. وقال الذهبي: إن حكام دول الطوائف في الأندلس كانوا يدفعون للفونسو ضرائب سنوية: الذهبي، العِبر، جـ٣، ص٢٨٩. وأشار ابن بسام إلى أن عدداً من وفود دول الطوائف قدموا يحملون ما عليهم من التزامات مالية لمملكة قشتالة خلال محاصرة الفونسو لطليطلة عام ٤٧٨هـ: ابن بسام، ق:٤، م:١، ص١٦٦. وأشارت بعض المصادر إلى أن سبب النزاع بين المعتمد والفونسو بعد سقوط طليطلة: تأخّر المعتمد بعض الوقت عن أداء الضريبة المحددة عليه أو الاختلاف في صفة تلك الأموال ومقاديرها: ابن الخطيب، أعمال، ص٢٤٤؛ الحميري، ص٨٤؛ الحلل، ص٤١؛ وانظر ابن خلدون، م:٤، ص٣٤١. كما إن أشباخ أشار إلى أن فرديناند أرغم (المعتضد) حاكم أشبيلية على دفع جزية سنوية له في عام ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م. وشهد العام التالي فرض ضريبة سنوية على ابن الأفطس صاحب بطليوس: انظر أشباخ، ص١٧، ١٨. كما إن المؤرخ نفسه بيّن أن سرقسطة كانت تدفع ضريبة مالية لقشتالة عام ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م، علماً بأنّها دفعتها لفترة من الزمان قبل ذلك لمملكة أرغون: انظر أشباخ، ص١٦-١٧.

عبدالملك بن رزين المعروف بابن الأصلع البربري، الذي انتزى آباؤه على حكم شنتبرية الشرق (Albarracin) ، فخلف يحيى هذا والده على حكم دويلته عام ٤٩٦هـ، فبدأ عهده بالاستعداد للتحضير لتقديم آيات الولاء والطاعة، واستدرار عطف سيّد الجزيرة الايبيرية، إذ كان من العادات التي سنّها حكّام دويلات الهزيمة والانقسام آنذاك تقديمهم ـ كل على حده ـ الهدايا النفيسة للفونسو السادس، ولكي ينال هذا الحسام (حسام الدولة) رضى الفونسو ومباركة حكمه، كلّف مواطنيه جمع مبالغ كبيرة من المال لتقديم الهدايا والنفائس للفونسو[١٦٣]، ولقد تخيّرها وانتقاها على عينه بعد أن تمّ استجلابها من مدن المشرق الإسلامي، لتكون جديدة وفريدة من نوعها تليق بمقام الفونسو السامي، فكان لابن الأصلع ما أراد، حيث أعدّ موكباً لمرافقته إلى حيث يقيم ذلك العلج . . فتقدّم إليه بما حمل من نفائس وهدايا جليلة القدر من الحلي والحلل، والخيل المسوّمة، وتحف الملوك النادرة التي يعجز عنها الوصف، حتى قيل إن قيمتها بلغت مئة ألف دينار، واضعاً إيّاها أمامه بعد أن مثل بين يديه وأدّى له طقوس الولاء والتبجيل لعلّه يظفر برضاه، ولقد كاد ابن الأصلع أن يفقد توازنه من شدّة فرحه عندما رفع طرفه إلى الفونسو فشاهد علامات الإعجاب والرضى ترتسم على وجهه، فأومأ الفونسو إليه. . . وأذن له بالجلوس ثم أمر له بهدية تليق بمقامه ومكانته، فأحضروا إليه قرداً. . . فدهش ابن الأصلع واستغرب من هذا التكريم الذي أولاه له امبراطور الملّتين. . ولكنّه أقنع نفسه ومَنْ حوله بأنّ لهذا التكريم دلالة. . . بشر وخير. . . فعاد إلى دويلته وشعبه وأوعز بتخصيص ردهات هامة من قصره لما وهبه سيّد الملّتين وحباه، وخصص له مصاريف ونفقات، وكلّف لجاناً للعناية والإشراف بما حظي به. . . فَغُسل القرد بماء الورد، وبُخّر بأعواد الندّ، وأُلبسَ ملابس وقلائد من أجمل وأثمن ما وقعت عليه العين واليدّ. فكان ابن الأصلع كلّما حدثت مناسبة أو أقبل عليه شعراء طلب منهم التغنّي بذلك القرد مفاخراً به وبدلالاته أقرانه من ملوك الأندلس. . . إلى حين. . فباهى به وفاخر. . . ولكنّ الدمّ الجديد الذي أخذ يتدفق في عروق الأمّة زاحفاً إليها من العدوة المغربية، بقيادة جيوش المرابطين حال بينه وبين كرسيّ عرشه عندما تقدّمت إليه كتائب من تلك القوات

---

(١٦٣) ابن الكردبوس، م:١٣، ص٨٨؛ مؤلف مجهول، ذيل، ص٣١٠-٣١١؛ ابن أبي دينار، ص١٠١؛ أرسلان، الأمير شكيب، الحلل السندسية في الأخبار الأندلسية، جـ٢، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص١٠٣.

وأطـاحت به وبعرشه . . ـ في الثامن من شهر رجب سنة ٤٩٧هـ[١٦٤] فما هنيء بقرده ولا بعـرشه ـ قبل أن يُقدِمَ على تسليم البلاد التي تخضع لسلطته ودويلته كما فعل كبير دولة مجاورة من قبل . . ولكنّ القرد فرّ هارباً عندما بدأت مقدّمات كتائب المرابطين تتقدم داخل ممرّات وردهات قصر ابن الأصلع!!

ثم إن الصراع الذي احتدم بين دول الطوائف في الأندلس كان من أهمّ الأسباب التي أدّت إلى سقوط المناطق الأندلسية بأيدي الممالك النصرانية، وأهمّ منطقة سقطت بأيديهم كانت طليطلة، ومن أبرز الصراعات بين دول الطوائف صراع طليطلة مع سرقسطة، وصراع طليطلة مع قرطبـة التي استغلّتـه مملكـة قشتالة أحسن استغلال فكانت تهاجم المناطق الطليطلية خلال انشغال القوات الطليطلية في حربها مع قرطبة، وكذلك تدخّل إمارة قطلونية لمحاربة القوات الطليطلية مساعدة للقوات الاشبيلية في مرسية عام ٤٦٥/٤٦٦هـ الموافق ١٠٧٣م[١٦٥]، وتعاون ارغون ونبّرة مع سرقسطة في الاستيلاء على مناطق تابعة لطليطلة في عهد القادر كشنتبرية وملينة، ومحاصرة كونكة. واستغلال قشتالة لحالة التمزق التي كانت عليها دول الطوائف وانشغال تلك الدول في صراعاتهم فيما بينهم، والقيام بالاستيلاء على قلمرية عام ٤٥٦هـ، التابعة لبطليوس، ونتيجة للنزاعات بين دول الطوائف أصبحت كلّ من سرقسطة وطليطلة وبطليوس وإشبيلية تؤدي مقادير محدّدة من الأموال للممالك النصرانية كضـريبـة سنـوية، فلذلك يمكن القول إن الصراع بين دول الطوائف فيما بينها من جهة وصراعاتهم مع الممالك النصرانية من جهة أخرى أدّى إلى إضعاف دول الأندلس عسكرياً وسياسياً واقتصادياً، في حين أن ذلك زاد من قوة الممالك النصرانية، إذ أنّها توسّعت جغرافياً على حساب الدويلات الإسلامية الأندلسية، وزادت مداخيلها المالية فأثّرت إيجابياً بالنسبة إليهـا، حيث وفّـرت لهم الأمـوال الـلازمـة لإعداد الجيوش، وتجهيز العدد للمعارك في المستقبـل، وزاد ذلك أيضاً في إبقاء الروح المعنوية عند معظم مواطنـي تلك الدول في الشمال، كما أن الصراع أدّى إلى إفقار الدويلات الأندلسية من جرّاء الغارات والحروب وانتشار الأعمال العسكرية، وانعكس ذلك على الإنتاج الاقتصادي الذي أثّر بالتالي على بقية المرافق السياسية والعسكرية في أندلس الطوائف، كلّ ذلك كان له أثر كبير في استيلاء

---

(١٦٤) مؤلف مجهول، ذيل، ص٣١٠-٣١١؛ أرسلان، المرجع السابق نفسه، جـ٢، ص١٠٣.

(١٦٥) انظر أبو ملّوح، ص٣٦٥-٣٦٦، ٣٧٩.

القشتاليين على طليطلة بل كان لذلك أثر أيضاً في استيلاء الممالك النصرانية على كثير من المناطق الأندلسية، ومن أبرز المعالم الدالّة على دور دول الطوائف في نكبة طليطلة تقديمهم الأموال والهدايا للفونسو خلال فرضه الحصار الشديد على طليطلة، والذي أدّى إلى سقوطها، فوفّر له ذلك الإمكانات الكافية واللازمة لمتابعة الحرب من جهة، وللاطمئنان والتأكد أن لا نجدات ستصل إلى طليطلة لمساعدتها في التصدّي له من جهة ثانية، والأدهى من كل ذلك الوقع الذي تركته المقابلة على نفوس أهل طليطلة، عندما رأى الوفد الطليطلي بأمّ عينيه وسمع ما جرى في المقابلة.

وأخطر دور أدّاه حكام دول الطوائف كان دور المفترّج الذي وقفوه ازاء محنة طليطلة، وخاصة موقف المعتمد بن عبّاد حاكم أكبر دولة أندلسية آنذاك، والذي تمثّل في عدم مناصرة أهل طليطلة، حتّى أن بعض المصادر أشارت إلى أنّ معاهدة كانت مبرمة مع الفونسو أوحت من خلالها ـ معتمدة على رسالة المعتمد إلى الفونسو ـ أن اتفاقاً كان قد عقد بين المعتمد والفرنسو كان من بنوده عدم معارضة المعتمد لمخططات الفونسو في الاستيلاء على طليطلة[١٦٦]، ولذلك يمكن القول إن من الأسباب التي ساعدت على وصول طليطلة إلى المصير الذي وصلت إليه، عدم الوعي الكافي لدى حكام دول الطوائف لما كان ينتظرهم من الأخطار التي ستترتب على ضياع طليطلة، وأدرك بعضهم وعلى رأسهم المعتمد بن عبّاد ذلك بعد فوات الآوان، فحاولوا عندئذ الاستنصار بمسلمي العدوة المغربية[١٦٧]، ويُستثنى

(١٦٦) انظر مؤلف مجهول، الحلل، ص٤١. أمّا الحميري فقد ذكر أن صلحاً كان مبرماً بين المعتمد والفونسو عندما سقطت طليطلة عام ٤٧٨هـ: الحمري، ص٨٤.

(١٦٧) كما فعل المعتمد بن عبّاد عندمنا أرسل إلى يوسف بن تاشفين مستنصراً به: انظر الصنهاجي، ص١٠٢-١٠٣؛ ابن الخطيب، ص٢٤٥ وقد ذكر أن ذلك حدث في بداية شهر جمادى الأولى سنة ٤٧٨هـ؛ انظر الحميري، ص٨٥-٨٦ فقد ذكر أن المعتمد أخذ موافقة ابن الأفطس وعبدالله الصنهاجي فيما يتعلّق في استقدام المرابطين، وأرسلوا وفداً مشتركاً من أجل تلك الغاية؛ وانظر الحلل، ص٤٤-٤٦ فقد ذكر أن رسالة المعتمد إلى ابن تاشفين كانت في شهر جمادى الأولى من سنة ٤٧٩هـ، ثم انظر ابن الكردبوس، م: ١٣، ص٨٩-٩٠ الذي ذكر أن حكام المناطق الأندلسية وخاصة الجهات الغربية منها كابن عبّاد وابن الأفطس عندما تيقّنوا من نوايا الفونسو وخططه استنجدوا بالمرابطين. لكن صاحب كتاب الحلل ذكر أن المراسلة بين ابن الأفطس وابن تاشفين كانت قد بأدت عام ٤٧٤هـ، وأن وفداً من أهل الأندلس ذهب إلى ابن تاشفين في ذلك العام: انظر الحلل، ص٣٣-٣٥.

من حكام دول الطوائف المتوكل عمر بن الأفطس حاكم بطليوس إذ أنه بعث قوات بقيادة ولده لإنقاذ طليطلة ولكنّه لم يستطع إنقاذها من المصير الذي آلت إليه فهُزمت قواته بعد أن خاضت عدّة معـارك مع القوات المُحَاصِرة لطليطلة[١٦٨]، وكذلك قيام ابن الأفطس أيضاً بإرسال رسالة استنجاد إلى يوسف بن تاشفين قبل سقوط طليطلة، يستنصره للقدوم لمساعدة المسلمين في محنتهم التي كانـوا يواجهـونها في عام ٤٧٤هـ[١٦٩]، وكذلك قيامه بتوجيه القاضي العلّامة أبي الوليد الباجي للقيام بجولة تحذير واستصراخ لمسلمي الأندلس حكاماً ومحكـومين، للقيام بالوحدة والوقوف في وجه الممالك النصرانية، وإنقاذ طليطلة قبل أن تسقط وبالتالي يأتيهم الدور من بعدها[١٧٠].

وتتزاحم التسـاؤلات حول مواقف حكّـام دويلات الطوائف من تسليم البلاد والتواطؤ مع الأعداء عليها وعلى شعوبهم ومصائرها، وفي هذا السياق يقفز إلى الواجهة تساؤلات منها: هل اعتبر حكّام دويلات الطوائف من ما آل إليه مصير شقيقتهم ـ المتنافرة معهم ـ طليطلة وسادتها وكبرائها؟!! وهل أن ادّعاءاتهم بضرورة الوحدة ورصّ الصفوف للوقوف في وجه الأخطار أخذت طريقها إلى التطبيق الفعلي؟ وهل سجّل التاريخ أو أرّخ المؤرخون لواحد من هؤلاء أنه تنازل برضاه طائعاً مختاراً عن كرسي الحكم وعن امتيازاته وممتلكاته التي استحوذ عليها ونهبها من مقدّرات الأمّة للصّالح العام وخدمة للوطن، وإرضاء لله، أو للمساهمة في وقف ذلك الخطر على الوجود الأندلسي كلّه أو القيام بمحاولة ذلك. . .؟!! هل حدث ذلك فعلًا أو أيّ شيء من هذا القبيل ولو مرّة واحدة أو حدث أمراً واحداً ممّا سبق ذكره فقط؟! وهل صدق هؤلاء حقيقة مع أنفسهم وشعوبهم حتّى في مثل تلك اللحظات الخطيرة والمصيرية. . أم أنّ داء الانقسام وشهوة الحكم والسلطة والجاه، والاستحواذ على المال أعمت القلوب والأبصار؟! هل كانت مجاراة بعض حكّام دويلات الطوائف للشعور الذي انتشر وعمّ بلدانهم بضرورة الاستنجاد واستقدام قوات المرابطين من المغرب صادقة؟ أم أن الظروف وطبيعة المرحلة فرضته عليهم؟! لكي يركبوا موجته ويتحكموا في مساره، وترشيده؟ وَلِمَ لم يتصدّوا للعدوان الزاحف عليهم في الوقت المناسب؟ وأين كان مثل هؤلاء قبـل أن يحـدث ما حدث؟ ألم تكن علاقـاتهم حسنـة ووطيدة مع سيّد الجزيرة الفونسو

---

(١٦٨) أشباخ، ص٥٩؛ عنان، دول، ص١١٠.

(١٦٩) انظر الحلل، ص٣٣-٣٥.

(١٧٠) عنان، دول، ص١٠٩.

السادس؟ ولِمَ كلّ هذا الانقلاب في المواقف والتصريحات وفي لغة الخطاب؟ أكان المقصود بذلك الرأي العام؟! ألم يتوقعوا أن يحدث ما حدث معهم عندما قلب لهم الفونسو ظهر المجنّ؟ هل كانوا غافلين.. ؟!! أم أنهم كانوا غير مدركين لمخطّطات الفونسو ونواياه؟ وهل يقبل منهم مثل هذا الاعتذار؟! وهل كانوا صادقين في قرارة نفوسهم بضرورة وأهميّة استقدام المرابطين؟ وهل أنهم صدقوا أو أخصلوا نواياهم وأعمالهم بعد استقدام وعبور جيوشهم البحر لنصرتهم؟! أم أنهم انقلبوا على مَنْ استقدموهم وعادوا سيرتهم الأولى بوضع أيديهم مرّة أُخرى سرّاً وعلناً مع الفونسو لأنّهم خافوا المرابطين والتفاف الجموع الأندلسية على اختلاف دويلاتها وحكّامها خلف أمير المسلمين يوسف بن تاشفين؟!!!

ومن العوامل التي أدّت بطريقة أو أخرى إلى المساعدة في سقوط طليطلة، حياة الترف واللّهو وسياسة البذخ التي عاشها حكّام بني ذي النون في طليطلة، كالمأمون والقادر التي كانت تستنفد أموالاً طائلة في بناء القصور والأنفاق على الملذات[171]، بدل أن تسخّر تلك الأموال والإمكانات في الإعداد لحرب الممالك النصرانية واقتناء السلاح وبناء التحصينات اللازمة.

ومن الأُمور التي ساهمت في إضعاف طليطلة لجوء بعض أفراد البيت النوني إلى أعداء طليطلة[172]، فكان للخلاف الذي حدث في الأُسرة الحاكمة دور كبير في كشف أسرار ونقاط الضعف في الدولة ممّا مكّن أعداءها من القيام بشنّ هجمات قويّة ومؤثّرة أدّت إلى إضعافها إلى حدٍ كبير.

---

(١٧١) بلغ بنو ذي النون ملوك طليطلة مبلغاً عظيماً في البذخ والترف، ولهم الإعذار المشهور الذي يقال له «الإعذار الذُّنُوني» الذي قام به المأمون بن ذي النون وبه يُضرب المثل عند أهل المغرب، وهو عندهم بمثابة عُرْس بوران عند أهل المشرق: المقّري، نفح، جـ١، ص٤٤٠، ٥٢٨-٥٢٩. وانظر ابن بسام، ق:٤، م:١، طبعة ١٩٤٥م، ص٩٨-١٠٦ فقد ذكر تفاصيل ذلك، وممّا جاء في كتابه عن هذا الإعذار المشهور المقتطفات التالية: «قال ابن حيّان كتب إليّ الأديب ابن جابر قال: احتفل المأمون بن ذي النون في مدعاة إعذار حفيده يحيى فحشد أمراء البلاد...، فجاءوا في ذلك كلّه بأمر كُبار أبيدَتْ لمطابخه أمم من الأنعام، جمع فيه بين المَشّاء والطيّار والعوّام. وانتُسِفتْ لمخابزه أهراءٌ من الطعام، وأنفقت على مجامِره ومعاطِره جُمَلٌ من الأموال الجِسام، ... ولم يفسح لأحدٍ التخلّفَ عنها...». وانظر بشأن بعض جوانب الترف والملذات: ابن سعيد، جـ٢، ص٩؛ أبو ملّوح، ص٤٠٨.

(١٧٢) انظر المقّري، نفح، جـ٤، ص١٣٣، ١٣٤؛ انظر أبو ملّوح، ص٣٦٨-٣٦٩، ٣٧٠.

ومن الأسباب غير المباشرة التي كان لها أثر في سقوط طليطلة: حالة الفوضى والاضطرابات التي رافقت انتقال السلطة من أيدي الأمويين إلى العباسيين في المشرق الإسلامي، والتي أدّت في النهاية إلى انسلاخ الأندلس عن باقي جسم الدولة الإسلامية وقد أدّى ذلك فيما بعد بالإضافة إلى عوامل داخلية في الأندلس كالمجاعات والحروب والنزاعات الداخلية إلى نشوء الممالك النصرانية في الشمال الايبيري، ومن ثم توسع تلك المناطق فيما بعد إبّان فترات الضعف والفوضى والنزاعات التي عمّت الأندلس الإسلامية وتكوين الممالك النصرانية، ومن ثمّ امتدادها وتوسّعها إلى الجنوب بسبب الثورات الداخلية في الأندلس(١٧٣). كل هذه العوامل مجتمعة كان لها دور غير مباشر فيما بعد على سقوط طليطلة وغيرها من المناطق الأندلسية بأيدي الممالك النصرانية، إذ أن البدايات الأولى لِما حدث لطليطلة بدأت منذ ذلك الزمان البعيد وأعطت ثمارها في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري.

لكلّ ما سبق يمكن القول إن حياة الركود والدِعة والتفرق التي مرّ بها المسلمون في طليطلة والأندلس، كانت عبارة عن حالة من الشيخوخة وصل الأندلسيون إليها، لذلك يمكن القول إن الأمّة أو الدولة التي تكون ضعيفة سياسياً وعسكرياً، ومفككة منقسمة على نفسها، وتنصرف إلى حياة الترف والملذّات، وترضى بعيشة الدعة والذلّ والهوان، لا بدّ وأن تمرّ بفترة ركود وضياع، وتنهار، ومن المؤكّد في مثل هذه الحالة أن تستولي أُمّة أو دولة أُخرى على مقاليد الأُمور وتبسط هيمنتها على البلاد وتسوم سابقتها الخسف والعذاب، لأنّ أُمّة أو دولة راكدة متجمدة لا بدّ وأن تتراجع، وبالتالي تقهرها أُمّة أُخرى فتية لديها من عوامل البقاء والازدهار ما يكفي لأن تحتلّ مكانة الأُمّة والدولة السابقة، وهذا ما حدث في الأندلس فقد حلّ المسلمون في بداية الفتح الإسلامي للأندلس مكان القوط(١٧٤)، وانعكس الأمر بعد تفكك وحدة الأندلس فحلّت الممالك النصرانية مكان دويلات الأندلس الإسلامية، ولم يكن في الإمكان تغيير مجرى الأحداث إلاّ من خلال تجديد الحياة والشباب في كيانات

---

(١٧٣) حول الثورات الداخلية في الأندلس في عصري الإمارة والخلافة: انظر أبو ملّوح، ص١٤٢-١٤٣، ٢٦٣-٢٦٦، ٢٩١-٢٩٢، ٣١٨-٣٢١ وأمّا فيما يتعلّق بالثورات الطليطلية في عصري الإمارة والخلافة فانظر المرجع نفسه، الفصل الرابع.

(١٧٤) انظر أبو ملّوح الفصل الأول ص١١ وما بعدها حول أوضاع دولة القوط في إيبيريا، ثم انظر الفصل الثاني بخصوص حلول المسلمين مكان دولة القوط في الأندلس.

مسلمي الأنـدلس بتجـديد جريان دمـاء جديدة في عروقها، وقد حدث ذلك عندما قدم المـرابـطون إلى الأنـدلس، ومن بعدهم الموحدون، ولكنّ الدم الجديد الذي أخذ في السريان في شرايين الجسد الأندلسي لم يكن كافياً لتجديد شباب الأندلس، إلاّ أنه ساعد على حفظ الجسم المتبقّي من الأندلس من الضياع فترة من الزمان، ولذلك يمكن القول إن غروب شمس أمّة الإسلام عن طليطلة تبعه ظهور أمّة جديدة عليها.

إن ما حدث لطليطلة وللمسلمين في الأندلس سيتكرر حدوثه للأمم والدول التي ستمر في حالات مشـابهـة، وسيحدث لها ما حدث لطليطلة، إذا لم تصح، وتتلاف أخطاءها وتعالج مواطـن الضعف فيها، كما أوصلت الأخطاء طليطلة إلى مصيرها الذي آلت إليه، لذلك فإنّ قراءة التاريخ قراءة بهدف الاستفادة من العِبر والدروس المستقاة ممّا جرى في الأيام الغابرة، لا بدّ وأن تعطي ثمارها إذا ما عولجت المشاكل والأسباب التي ستؤدّي إلى الضياع قبـل أن تصل إلى مرحلة اللاّعودة. وحرّيّ بمن يعيشون أوضاعاً مشابهة لأوضاع مسلمي الأندلس وطليطلة في فترة التفرق والضياع التي مرّت عليهما حرّيّ بهم أن يعالجوا أخطاءهم، وأن يعتبروا قبل أن يتخطفهم مصير مشابه أو أشدّ مرارة وقسوة، من المصير الذي حلّ بطليطلة قبل فوات الأوان.

الآثار الناتجة عن سقوط طليطلة :ـ

تمخّض سقوط طليطلة بأيدي مملكة قشتالة عن نتائج منها ما يتعلق بطليطلة، ومنها ما يختص بالأندلس: أمّا الآثار التي أعقبت ضياع طليطلة بالنسبة لطليطلة نفسها فهي: تلاشي دولة من دول الطوائف في الأندلس كان اسمها طليطلة نظراً لاستيلاء مملكة قشتالة على أجزاء كبيرة منها، وعلى رأس تلك المناطق العاصمة طليطلة.

وبعـد احتلال المدينة عمد نائب الفونسو (سسندو) المُعين عليها إلى استمالة بعض رجـالاتها، بسبب تطبيقه سياسة أظهرت العدل في الأحكام(١٧٥). ومن النتائج التي ترتبت على ضياع طليطلة من أيدي المسلمين اتخاذ الفونسو طليطلة عاصمة لدولته عام ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م(١٧٦)، والقيام بتحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة بأمر منه في شهر ربيع الأول من

---

(١٧٥) ابن بسام، ق: ٤، م: ١، ص١٦٧.

(١٧٦) النويّري، جـ٢٣، ص٤٤٢؛ وانظر بشتاوي، ص٥٠ فإنه قال إن طليطلة أصبحت عاصمة لقشتالة عام ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م.

عام ٤٧٨هـ[١٧٧]، وبإلقاء نظرة على شروط التسليم[١٧٨]، يلاحظ أن تغيير المسجد الجامع وتحويله إلى كنيسة هو خرق لبنود الاتفاقية بين الجانبين والتي نصّت على احترام قواعد الديانة الإسلامية وعدم التعرّض للمسلمين وللأمور المتعلقة بدينهم، وقد نصح سسندو الفونسو بعدم فعل ذلك أو غيره من الأمور، لأنّ في ذلك توغير للصدور وإثارة ردّة فعل عند المسلمين في طليطلة وفي غيرها من المناطق، وسيؤدي ذلك إلى إعاقة تنفيذ خطط وتدابير القشتاليين لأنّ من شأن ذلك استثارة النفوس الساكنة وتنبيهها من غفلتها[١٧٩]. ومن الآثار التي أعقبت سقوط طليطلة بأيدي القشتاليين بالنسبة لمسلميها، جباية مبالغ مالية منهم[١٨٠]، وهذا يعتبر في واقع الأمر أمراً طبيعياً بالنسبة لمعظم المنتصرين والفاتحين، ولكنّ المهمّ في ذلك هو التفاوت في المقادير التي تجبى وتفرض على المغلوبين.

وممّا ترتّب على ضياع طليطلة وتسليمها استيلاء القادر بن ذي النون على بلنسية وتولّيه حكمها[١٨١]، ولقد تبعه بعض مواطنيه إليها بسبب استيلاء القشتاليين على طليطلة[١٨٢]. ولهذا يمكن القول إن بعض مسلمي طليطلة هجروها بسبب سقوطها بأيدي القشتاليين، وخاصة المتحمسين منهم والعناصر الشابّة، لأنهم سيبحثون في مثل هذه الحالة عن أماكن جديدة للعيش فيها، أو التجنّد في صفوف بعض القوات التي اعتقدوا أنّها ستكون المحطة أو المحطّات القادمة التي سيشنّ الفونسو عليها هجماته، لقد ورد في أحد المصادر أن بعض أهل طليطلة نزحوا إلى سرقسطة[١٨٣]، ومن الأمور الدالّة على هجرة الطليطليين وجود شرط من الشروط التي اشترطها الطليطليون قبل تسليم مدينتهم، والمتعلق بحرية الهجرية من طليطلة لمن أراد ذلك من أهلها[١٨٤].

---

(١٧٧) ابن بسام، ق:٤، م:١، ص١٦٦؛ النويّري، جـ٢٣، ص٤٤٢.
(١٧٨) انظر هذه الدراسة، ص٢٥، ٣٣.
(١٧٩) ابن بسام، ق:٤، م::١، ص١٦٨.
(١٨٠) النويّري، جـ٢٣، ص٤٤٢.
(١٨١) الصنهاجي، ص٧٧؛ النويّري، جـ٢٣، ص٤٤٢؛ ابن الخطيب، ص١٨٢؛ ابن خلدون، م:٤، ص٣٤٨؛ القلقشندي، صبح، جـ٥، ص٢٥٢؛ المقّري، نفح، جـ١، ص٤٤١.
(١٨٢) أشباخ، ص٦٠.
(١٨٣) ابن الكرديوس، م:١٣، ص٨٤.
(١٨٤) المصدر نفسه، م:١٣، ص٨٥.

ومن الآثار التي نجمت عن ضياع طليطلة أفول شمس الإسلام عنها إلى زماننا الحاضر، وتمّ ذلك بسبب تراجع الإسلام عنها بسبب تناقص أعدادهم فيها نتيجة لهجرتهم، وتنصّر بعضهم من جهة، وقدوم أعداد كبيرة من المنتصرين من الشمال إليها واستيطانهم بها من جهة ثانية(١٨٥)، ولهذا فإن العنصر القشتالي أصبح هو العنصر الغالب عليها بعد اتخاذها عاصمة وقدمت إليها أعداد كبيرة منهم.

ومن الآثار التي أفرزتها عملية سقوط طليطلة تغيّر معالمها الإسلامية بتحويل أبرزها إلى معابد للمنتصرين، وأوضح مثال على ذلك تحويل المسجد الجامع فيها إلى كنيسة(١٨٦)، وقد أشار إلى ذلك أحد الشعراء في قصيدة قالها في رثاء طليطلة(١٨٧) :

مساجدُها كنائس، أيُّ قلب على هذا يقرُّ ولا يطيرُ؟

ومن أبرز النقاط التي نتجت عن سقوطها تحوّلها إلى منقطة معادية للمسلمين، ومكان متقدم لمحاربتهم وحصن منيع لحماية الغزاة، فقد ورد أن الفونسو التجأ إليها بعد هزيمته في موقعة الزلّاقة عام ٤٧٩هـ عندما أصيب في المعركة(١٨٨)، ولهذا فإنها أصبحت في غضون عام ونيف تقريباً نقطة لمحاربة المسلمين في الأندلس بعد أن كانت هي البوابة الحصينة لمواجهة الممالك النصرانية.

أمّا النتائج التي ظهرت بعد سقوطها بالنسبة للممالك النصرانية فهي: اتخاذ الفونسو السادس لقب الامبراطور(١٨٩)، وكذلك تسمية نفسه بذي السيادة على

---

(١٨٥) أشباخ، ص٦٠. وكانت هجرة النصارى إلى طليطلة أمراً طبيعياً نظراً لما كانت تمثّله لهم كونها كانت عاصمة ترمز لماضيهم قبل دخول الإسلام إليها.

(١٨٦) ابن بسام، ق:٤، م:١، ص١٦٦؛ النويّري، جـ٢٣، ص٤٤٢.

(١٨٧) المقّري، نفح، جـ٤، ص٤٨٤.

(١٨٨) ذكر ابن الكردبوس أن الفونسو كان محاصراً لسرقسطة عندما بدأت أخبار قدوم المرابطين وعزمهم العبور إلى الأندلس، فرجع إلى طليطلة واجتمع بأكابر رجال دولته واتخذ قراراً بمواجهة المرابطين، وتوجه المرابطون نحو بطليوس قاصدين طليطلة لمحاربة الفونسو، وإنّه التجأ إليها بعد هزيمته في موقعة الزلّاقة: ابن الكردبوس، م:١٣، ص٩٢، ٩٣، ٩٥؛ وقال ذلك أيضاً: الحمري، ص٩٣؛ النويّري، جـ٢٣، ص٤٥٦، ٤٥٨.

(١٨٩) ابن الكردبوس، م:١٣، ص٨٨؛ ابن أبي دينار، ص١٠١؛ مؤلف مجهول، الحلل، ص٣٨.

الملّتين[190]، أيّ الملّة النصرانية والملّة الإسلامية[191]، ويعني ذلك أنه اعتبر نفسه نتيجة للاستيلاء على طليطلة صاحب الكلمة الأولى في شبه الجزيرة الايبيرية، وأنه أصبح الرجل الأوّل الذي يتحكم بأُمّة النصارى وأُمّة الإسلام في الأندلس، واستعداده لوضع التاج على رأسه، إلّا أنه أجّل ذلك حتّى يستولي على قرطبة[192] التي كانت رمزاً لوحدة الأندلس ولسيادة المسلمين في تلك البلاد، فعملية استيلائه على طليطلة دفعته إلى التفكير بالاستيلاء على مناطق الأندلس وبسط سيادته عليها، وذلك يتضح من خلال إعداده ناقوساً لوضعه في مسجد قرطبة الجامع بعد أن يحوّل إلى كنيسة[193]، ولهذا يمكن القول إن ضياع طليطلة من أيدي المسلمين فتح المجال واسعاً أمام أطماع الممالك النصرانية في الاستيلاء على الأندلس وطرد المسلمين منها، وهذا الأمر ساعد على خلق شعور لديهم بحتمية تخليص الأندلس كلّها، وبذلك هبّت في نفوسهم روح جديدة لإخراج المسلمين من الأندلس، وبرز ذلك من خلال شخصية الفونسو وزيادة تكبّره وأخذه في التفكير بالاستيلاء على المناطق الأندلسية الأُخرى، نظراً لاعتقاده أن دول الطوائف لم تعد قادرة على الوقوف في وجهه، لكونهم أصبحوا جميعاً تحت رحمة سيفه[194].

ومن النتائج الأخرى التي ظهرت بعد سقوط طليطلة اندفاع القوى الشمالية للاستيلاء على المناطق الأندلسية، وأبرز مثال على ذلك قيامه بمحاصرة سرقسطة وإصراره على الاستيلاء عليها لولا قدوم الأخبار باجتياز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس الأمر الذي جعله يفك الحصار عن سرقسطة ويعود أدراجه إلى طليطلة للاستعداد لمواجهة القوات الإسلامية

---

(190) ابن الكردبوس، م: 13، ص89؛ مؤلف مجهول، الحلل، ص38، 42.

(191) انظر، الحلل الموشية، ص40.

(192) ابن بسام، ق: 4، م: 1، ص168-169، ابن الخطيب، أعمال، ص244.

(193) ابن بسام، ق: 4، م: 1، ص169؛ وانظر المقّري، نفح، جـ4، ص448 فقد ذكر أن الفونسو «قال: حتى نأخذ قرطبتهم، وأعدّ لذلك ناقوساً تأنّق فيه وفيما رصّع من الجواهر، فأكذبه الله وأزعجه. وورد أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين، فما قصّر...».

(194) ابن بسام، ق: 4، م: 1، ص167؛ ابن الكردبوس، م: 13، ص87. ومن العوامل التي جعلت الفونسو يعتقد ذلك، دَفعُ دول الطوائف ضرائب سنوية له، وكذلك قيامهم بتقديم الهدايا والأموال له، خاصة أثناء محاصرته لطليطلة، وعدم قيامهم بنجدتها: انظر ما سبق ذكره بهذا الخصوص في هذه الدراسة.

بقيادة ابن تاشفين(١٩٥).

إن ما حدث لطليطلة انعكس أثره على المناطق الأندلسيّة وخاصة المجاورة للممالك النصرانية، فدبّ الخوف والهلع في نفوس مسلميها، ولم يعودوا قادرين على مواجهة أيّة قوات غازية أو التصدّي لها(١٩٦).

ومن الآثار المهمّة التي نتجت عن سقوط طليطلة اقتراب الخطر القشتالي من الأجزاء الخلفية من الأندلس والتي كانت لا تعتبر خطوط مواجهة حدودية مع الممالك النصرانية، وذلك لأنّ المناطق الطليطلية الشمالية كانت تعتبر حدّاً فاصلاً ومانعاً للأخطار الشمالية، وفي الوقت نفسه نقاطاً متقدّمة لمحاربة الممالك النصرانية، فهي عبارة عن رأس الحربة المصوّبة لوجود الأعداء في الشمال، ولكن سقوطها بأيدي القشتاليين عكس الأمر وجعل منها رأس حربة في وسط الجسد الأندلسي بسبب موقعها المتوسط بالنسبة لدول الطوائف والممالك النصرانية، وكذلك وسطيتها بالنسبة لشبه الجيزرة الايبيرية(١٩٧)، إن هذه الميّزة التي كانت تتصف بها جعلتها بعد ضياعها أكبر خطر على الوجود الإسلامي في الأندلس، وقد ظهر ذلك جليّاً من خلال الأصوات التي بدأت ترتفع في الأندلس مشيرة ومنّبهة لذلك من خلال وسائل الإعلام في تلك العصور والتي كان من أبرزها الشعراء، الذين هبّوا للتحذير من الخطر ودق أجراسه حيث تفاقمت الأخطار وعظمت المصائب، ومن ذلك قول أبي محمّد عبدالله العسّال الطليطلي(١٩٨) الذي رحل بعد سقوط طليطلة إلى غرناطة حيث توفي فيها:

يا أهلَ أندلسٍ حُثّوا مطيَّكُمُ   فما المقامُ بها إلّا من الغَلطِ

---

(١٩٥) انظر ابن الكردبوس، م:١٣، ص٨٩، ٩٠-٩١: فقد ذكر أن قوى الممالك النصرانية قد انتشرت في مختلف أنحاء الأندلس وعاثت فيها الخراب وخاصة المناطق القريبة النائية والمتقدمة؛ وانظر ابن أبي زرع، ص١٤٥-١٤٦ فقد ذكر أن الفونسو كان محاصراً لسرقسطة عام ٤٧٩هـ عندما عبر المرابطون إلى الأندلس، في حين أن طرطوشة كانت محاصرة من قبل قوات أرغون.

(١٩٦) انظر ابن الكردبوس، م:١٣، ص٨٧، ٨٨، ٨٩، ١٠١.

(١٩٧) ابن صاعد الأندلسي، القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد، طبقات الأمم، نشر: الأب لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٢م، ص٦٣؛ الإدريسي، صفة، ص١٧٣؛ المرّاكشي، ص٢٩؛ الحميري، ص١٣٠؛ المقّري، نفح، جـ١، ص١٦١.

(١٩٨) هو زاهد طليطلة المشهور. . توفي سنة ٤٨٧هـ وقد نيّف على الثمانين: انظر ابن سعيد، جـ٢، ص٢١.

الثوب يَنسلُ من أُطرافه، وأرى   ثَوْبَ الجزيرة مَنْسُولاً من الوسطِ[199]

وقد أراد الشاعر من قوله هذا التنبيه للمصاب الجلل الذي منيت به أندلس الطوائف، وخاصة أن الثوب قد خرق من وسطه، وفي هذه الحالة لا ينفع ترميمه كما لو كان الخرق والتلف في أحد أطرافه. وهذا الوضع شبيه بوضع فلسطين المغتصبة إلى حدّ كبير، فهي بمثابة الوسط للوطن العربي، وهمزة الوصل بالنسبة له، كما أنها تعتبر قلب العروبة النابض، والتساهل والتغاضي أو المساهمة في تسليمها هو عبارة عن إتلاف لجميع جسد الوطن العربي وروحه، ففلسطين هي القلب والوسط. فإذا تَلِفَ القلب ومزّق الوسط فإن بقية الثوب ستنسل خيوطه ويؤول إلى التلف، لأن الألم والمصاب في أهم بقعة من جسد الأمّة، وإن الداء سينتشر ويستشري في بقية أنحاء الجسم العربي.

ونقل ابن خلكان أبيات الشعر السابقة مع بعض الاختلاف في بعض كلماتها، فقد ذكر أن أبا محمد عبدالله بن فرج بن عزنون اليحصبي المعروف بابن العسّال الطليطلي قال بمناسبة سقوط طليطلة:

حُثّوا رَوَاحلكم يا أُهل أندلس   فما المقام بها إلّا من الغلط
السلك يُنثر من أطرافه، وأرى   سلك الجزيرة منثوراً من الوسطِ
مَنْ جاور الشرّ لم يأمن عواقبه   كيف الحياة مع الحيّات في سفطِ؟[200]

كما أن قصيدة طويلة قيلت في رثاء طليطلة بعد ضياعها استنهض قائلها همم المسلمين حكّاماً ومحكومين لنجدة المسلمين ونصرتهم وتخليص ما ضاع من بلادهم، منها الأبيات التالية[201]:

لثُكْلِكِ كيف تبتسم الثغورُ   سروراً بعد ما سُبيت ثغورُ
لقد قِصِمَتْ ظهورٌ حين قالوا   أمير الكافرين له ظُهورُ
لقد خضعت رقابٌ كُنَّ غلباً   وزال عتوُّها ومَضى النّفورُ
وهان على عزيز القوم ذلٌّ   وسامح في الحريم فتى غَيورُ

---

(١٩٩) ابن سعيد، جـ٢، ص١١؛ المقّري، نفح، جـ٤، ص٣٥٢.
(٢٠٠) ابن خلكان، جـ٤، ص١١٨-١١٩.
(٢٠١) انظر المقّري، نفح، جـ٤، ص٤٨٣-٤٨٦.

طليطلةٌ أبــاحَ الــكــفــرُ منــهــا ... جِمــاهــا، أنّ ذا نبــأ كبــيرٌ
وأخــرج أهـلهــا منهــا جميعــاً ... فصــاروا حيث شاء بهــم مصــيرُ

منها:

مَســاجــدُهــا كنائسٌ، أيُّ قلب ... على هذا يقــرُّ ولا يطيرُ؟

ومنها أيضاً:

فإنّــا مثــلهــم وأشــدُّ منــهــم ... نجــورُ وكـيف يسـلم مَنْ يجــورُ
أنــامــنُ أن يحــلَّ بنــا انـتـقــام ... وفينــا الـفسق أجمــع والفجــورُ
وأكــلُ للحــرامِ ولا اضــطرار ... إلَــيْهِ فيَسْــهُــلَ الأمْــرُ الــعَسيرُ
يزول الــســتــر عن قومٍ إذا ما ... على الـعـصيان أرخيت الستــورُ
خذوا ثأر الــديانــة وانـصــروهــا ... فقــد حامت على القَتْلى النســورُ
ولا تهــنــوا وسُــلّوا كلَّ عَضْــب ... تهــابُ مضــاربــاً منــهُ الـنحــورُ
ومــوتُــوا كلّكــم فالـمــوتُ أولى ... بكــم من أن تُجــارُوا أو تجُــورُوا
أصــبــراً بعــد سبي وامتــحــان ... يُلامُ عليهــمــا الـقـلبُ الـصّبــورُ

ومنها أيضاً:

لقــد ساءت بنــا الأخبــارُ حتى ... أمــات الــمـخـبـرين بهــا الخبيرُ
أتــتــنــا الــكُـتْـبُ فيهــا كلُّ شرّ ... وبــشّــرَنــا بأنـحــسنــا البَشِيرُ
وقــيل تجــمـعــوا لفــراقِ شمــل ... طُليطلةٌ تمــلّكـهــا الــكَــفُــورُ
لقــد صمَّ الــســميعُ فلم يعــوّل ... على نبــاءٍ كمــا عمــيَ البَـصيرُ
أنــتــرك دُورَنــا ونــفــرّ عنــهــا ... ولــيَسْ لَنــا وراء الــبَــحْــرِ دُورُ

ومنها:

لقَــدْ ذهــبَ الــيقــينُ فلا يقينٌ ... وغــرَّ الــقــوم بالله الــغَــرورُ
فلا دينٌ ولا دُنــيا ولــكــن ... غرورٌ بالــمَــعِــيشــةِ ما غرورُ
رَضُــوا بالــرقِّ ياللّه ماذا ... رآهُ ومــا أشــار بهِ مُشــيرُ
مضى الإســلام فابْــكِ دمــاً عليهِ ... فمــا ينفي الجوى الــدمعُ الغزيرُ
ونُــحْ وانــدبْ رفــاقــاً في فلاة ... حيارى لا تحطُّ ولا تســيرُ
ولا تَجْــنَــحْ إلــى سلم وحــارب ... عسى أن يُجْبَــرَ العــظْمُ الكَسيرُ

وسقوط وسط الأندلس (طليطلة) أدّى في نهاية المطاف إلى سقوط الأندلس كلّها بأيدي الممالك النصرانية، لأنّ الوجود القشتالي في وسط الأندلس كان بمثابة الدّاء بالنسبة للجسد الإسلامي فيها، فاستقرّ ذلك الدّاء واستشرى حتى آلت إلى السقوط.

ومن الآثار التي نتجت عن استيلاء مملكة قشتالة على طليطلة عام ٤٧٨هـ، الاصطدام المباشر بين مملكة قشتالة وإشبيلية[٢٠٢]، نتيجة لأطماع الفونسو، ومطالبته تسليم بعض الحصون والمناطق التابعة لإشبيلية الواقعة في المناطق الجبلية، للوفد الذي أرسله[٢٠٣]، ونظراً لما دار بين رجال المعتمد ورجال الفونسو من مشادّات وردود وردود مقابلة[٢٠٤]، جرّد الفونسو حملة على إشبيلية ومناطقها[٢٠٥]، وقد وقعت القطيعة بين الجانبين، ممّا دفع المعتمد إلى مغالبة نفسه ومن حوله والقيام بالاستنجاد بدولة ناشئة عُرفت بدولة المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين فلبى ابن تاشفين نداء الاستغاثة عام ٤٧٩هـ[٢٠٦].

---

(٢٠٢) ذكر أشباخ أن الحصون التي طالب بها الفونسو كانت من الحصون التابعة لدولة طليطلة، وكان المعتمد قد استولى عليها قبل سقوط طليطلة: أشباخ، ص٦١.

(٢٠٣) الصنهاجي، ص١٠١-١٠٢؛ ابن الأثير، جـ١٠، ص١٤٢؛ ابن خلكان، جـ٤، ص١١٩؛ النويّري، جـ٢٣، ص٤٥٣؛ انظر الحميري، ص٨٤؛ انظر مؤلف مجهول، الحلل، ص٣٨-٣٩.

(٢٠٤) انظر النويّري، جـ٢٣، ص٤٥٣؛ الحميري، ص٨٤؛ مؤلف مجهول، الحلل، ص٤١-٤٢؛ وانظر ابن الأثير، جـ١٠، ص١٤٢؛ ابن خلكان، جـ٤، ص١١٩ فقد أشارا إلى ما فعله المعتمد بالوفد القشتالي؛ وانظر ابن الخطيب، أعمال، ص٤٤ فقد ذكر أن خلافاً وقع بين رجال الفونسو ورجال المعتمد، فتوعّد أحد رجالات الوفد القشتالي وقال لهم إن العام القادم سيكون عام أخذ أحسن البلاد بدل أخذ الأموال، فكان من المعتمد حينئذ ما كان...

(٢٠٥) انظر الحميري، ص٨٥؛ انظر الحلل، ص٤٢؛ وأشار ابن الأثير إلى استعداد الفونسو إلى التوجه إلى أشبيلية لمحاصرتها: ابن الأثير، جـ١٠، ص١٤٣؛ النويّري، جـ٢٣، ص٤٥٤؛ انظر المقّري، نفح، جـ٤، ص٣٥٦-٣٥٨.

(٢٠٦) انظر أبو ملّوح، ص٤١٩. انظر المقّري حول ما جرى للوفد القشتالي في أشبيلية وما جرى بعد ذلك من أحداث:.. إذ أن الفونسو زحف بجموعة إلى أشبيلية فضرب حصاراً حولها... وبعث الفونسو بكتاب إلى ابن عبّاد خلال حصاره، خاطبه فيه قائلاً: كَثُرَ بطول مقامي في مجلسي الذبان، واشتدّ عليّ الحرّ، فاتحفني من قصرك بمروحة أروّح بها على نفسي، واطرد الذباب عن وجهي، فوقّع له ابن عبّاد بخطّ يده على ظهر الرقعة: قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية تروّح منك لا تروّح عليك، إن شاء الله تعالى... المقّري، نفح، جـ٤،

لم يكن ابن عبّاد هو أوّل مَنْ استنجد بالمرابطين، فقد سبقه إلى ذلك المتوكل عمر بن الأفطس عام ٤٧٤هـ، فقد ذكر أن مراسلات سبقت سقوط طليطلة جرت بين ابن الأفطس والأمير يوسف بن تاشفين، استصرخه واستحثّه للقدوم لمساعدة المسلمين بعد سقوط بعض المناطق الأندلسية بأيدي مملكة قشتالة، فوعده ابن تاشفين بالنصرة[٢٠٧]، ولم يكتف ابن الأفطس بذلك بل قام بتشجيع القاضي أبي الوليد الباجي على القيام باستصراخ واستنهاض همم دويلات الطوائف حكاماً ومحكومين، والتنبيه للخطر المحدق الذي يتهدد الأندلس جميعها، والدعوة إلى التجمع ورصّ الصفوف للوقوف في وجه مخططات الدول المعادية[٢٠٨]. ولم تكن تلك الدعوات هي الوحيدة في ذلك الشأن بل إن كثيراً من الأصوات والدعوات ارتفعت منادية بضرورة التوحد ونبذ الخلافات ورصّ الصفوف لمواجهة خطر الممالك النصرانية، وخاصة بعد سقوط طليطلة، إذ أن عدداً من الفقهاء والعلماء اجتمعوا بقاضي قرطبة عبدالله بن محمد بن أدهم، وأوكلوا إليه القيام بالاستنجاد بالمرابطين، فاعلم القاضي المعتمد، بذلك فأيّد المعتمد ما اجتمع رأيهم عليه وطلب من القاضي أن يكون أحد رجال الوفد الذين سيوجههم إلى يوسف بن تاشفين لحثّه ومطالبته القيام بنجدة مسلمي

ص٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨، وانظر ص٣٦١-٣٦٧... بعد أن فك الفونسو الحصار عن أشبيلية... ترامت الأخبار إلى أسماعه تِباعاً بما يدور في الجانب الأندلسي من محاولات لتجميع القوى وجمع المتطوعين.. واستقواء الأندلسيين وارتفاع معنويات بعضهم بسبب ما كان يُشاع عن عزم المرابطين العبور إلى الأندلس، فحشد الفونسو جنوده وبدأ بتأليب الممالك النصرانية ومن وراءها، ولكنّه مع ذلك لجأ إلى استخدام أسلوب تخويف المرابطين لمنعهم من العبور إلى الأندلس، وقد ظهر ذلك من خلال كتابه الذي أرسله إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، والذي أغلظ له فيه القول، واصفاً ما عنده من القوة والعَدد والعُدد وقد بالغ في ذلك، فلمّا وصل الكتاب إلى ابن تاشفين أمر كاتبه الأندلسي أبا بكر بن القصيرة أن يجيبه..، فكتب وأجاد، فلمّا قرأه على أمير المسلمين قال: هذا كتاب طويل، أحضر كتاب الفونسو، واكتب على ظهره: «الذي يكون ستراه» وأمر بدفع الكتاب إلى الفونسو، فلمّا وقف الفونسو على ما جاء فيه ارتاع له، وعلم أنه بُلي برجل ذو عزيمة.. وليس على شاكلة من خَبِرَهم وتعامل معهم من حكّام دويلات الطوائف... ثم دخل المرابطون.. ودارت الدائرة على الفونسو وحلفائه.. حتى إنه طُعِنَ في إحدى ركبتيه ـ خلال فراره من ميدان المعركة على فرسه، من رجل مسلم ذو بشرة سوداء من المرابطين ـ بقي يعرج من أثرها بقيّة عمره.

(٢٠٧) انظر مؤلف مجهول، الحلل، ص٣٣-٣٦.

(٢٠٨) عنان، دول، ص١٠٩.

الأندلس[٢٠٩]. لذلك يمكن القول إن من الآثار التي نتجت عن سقوط طليطلة خلق جوّ وشعور عام في الأندلس لدى المسلمين على اختلاف دويلاتهم، ومعهم بعض حكّام دول الطوائف بالخطر الرهيب الذي أخذت دائرته تتسع وتتقدم لافتراس بقية المناطق، فتداعوا للتوحد ورصّ الصفوف للوقوف في وجه الخطر الماحق الذي ينتظرهم جميعاً ويتوعدهم بالويل والثبور، ولهذا يمكن القول أن سقوط طليطلة أشعل في نفوس الكثيرين من الأندلسيين وضمائرهم شعوراً عامّاً فرض عليهم التصدّي للخطر، وفي الوقت نفسه، دقّ سقوطها ناقوس الخطر ونبّه إلى المصير الذي ينتظر وجود باقي دول الطوائف كدول وكمسلمين بشكل عام، فبدأت تسري في نفوس كثير من مسلمي الأندلس الغيرة والنخوة بعد أن كادت تتبلّد، ويتلاشى من نفوسهم كل إحساس بما يدور حولهم إذ أنّهم أصبحوا وكأنّهم سكارى وما هم بسكارى من شدّة هول الأحداث التي تلاحقت عليهم، فران على نفوسهم الضعف والخبل واللامبالاة لِما يدور حولهم، فبدأت شظايا النار الملتهبة وشررها تحرقهم دون أن يحسّوا بلهبها وحرارتها، لذلك يمكن القول أن سقوط طليطلة أزال عن نفوسهم الغبار الذي تراكم عليها على مرّ السنين بسبب الأحداث التي جرت، فنفض بعضهم ذلك الغبار وصحا من غفوته أو نومه الطويل، وسرت في نفوسهم مشاعر جديدة هزّت وجدانهم وأعماقهم، فتنادوا أن هبّوا للجهاد وللدفاع عن وجودكم أيّها المسلمون في الأندلس.

إنّ من أهم النتائج التي أعقبت سقوط طليطلة، دخول القوات الإسلامية من المغرب بقيادة يوسف بن تاشفين لنجدة المسلمين هناك عام ٤٧٩هـ، والتي أدّت إلى صراع مسلّح كبير بين قوات المسلمين بشقيهم مسلمي الأندلس بمختلف دولهم ومناطقهم ومسلمي المغرب من جهة، والممالك النصرانية في الشمال وعلى رأسها مملكة قشتالة، وكذلك مملكة ارغون ونبّرة ومن هبّ لنصرتهم من النصارى من المناطق الجنوبية من فرنسا (من لانجدوك وجويانه وبرجونيه وبروفانس) من جهة أخرى، هذه المواجهة التي أسفرت عن حدوث معركة الزلاّقة، التي كانت خطيرة في نتائجها على الجانبين نظراً للآثار التي خلفتها، وعلى رأس ذلك المعنويات التي استفاد منها الطرف المنتصر بسبب حجم القوات التي خاضت المعركة، فوقعت أحداثها في منطقة من المناطق التابعة لدولة بطليوس تدعى

(٢٠٩) ابن الأثير، جـ١٠، ص١٤٩-١٥٠؛ ابن خلكان، جـ٤، ص١١٩؛ النويّري، جـ٢٣، ص٤٥٤.

الزلّاقة، وتمّ فيها تحقيق نصر ساحق لقوات المسلمين، وقتل من جرّائها أعداد كبيرة من قوات الحلفاء، حتّى أن بعض المصادر جعلت الذين نجوا منهم لا يتجاوز المئات بل العشرات، وكان من بينهم الفونسو نفسه حيث أُصيب بجرح والتجأ بعد مشقّة إلى طليطلة واحتمى بها[٢١٠]، وهكذا يلاحظ أن طليطلة أصبحت من المناطق التي يتحصن بها الغزاة، حيث كانت ملجأ لهم ومانعاً من أيّ خطر داهم سيواجههم، إذ أن الفونسو لم ينج إلّا بسبب تحصنه ولجوئه إلى طليطلة. وبسبب النتيجة التي أسفرت عنها هذه المعركة يمكن القول أن الدم الأندلسي تجدد بعض الشيء من جرّاء تدفق الدم الجديد، لذلك يلاحظ أن سقوط طليطلة ربط بين دول الإسلام في المغرب والأندلس، وبذلك استطاع كلا الجانبين العمل يداً واحدة لتحقيق نصر عزيز ومؤزّر على الممالك النصرانية، وبسبب الدعم والمدد اللذين تلقّاهما الجسم الأندلسي، الذي بقي يصارع الأعداء وحده مدة طولة دون مساندة دول الإسلام في المشرق.

---

(٢١٠) بالغت المصادر الإسلامية في تهويل عدد قوات الممالك النصرانية ـ ومن هَبّ للانخراط في صفوف جيوشها من بعض مناطق أوروبا الغربية ـ التي اشتركت في المعركة، فابن أبي زرع ذكر أن عدد تلك القوات قد بلغ مئة وثمانين ألف فارس بالإضافة إلى مئتي ألف راجل قتلوا جميعاً، وبلغت المبالغة ذروتها عندما ذكر أن تسعين ألف رأس من رؤوسهم جمعت وأُرسلت إلى المدن الإسلامية في المغرب والأندلس، وممّا يزيد الشكّ في هذا الرقم أن المصدر نفسه ذكر أن المعركة كانت شديدة وضارية وكاد المسلمون أن ينهزموا فيها لولا صمود المرابطين، وقد استمرّ القتل في صفوف المسلمين، ومع كلّ ذلك فقد ذكر المصدر كلاماً لا يمكن أن يصمد للواقع فيما يتعلق بعدد مَنْ قُتل من المسلمين والذي قُدِّر بثلاثة آلاف رجل. ويكفي طرح السؤال التالي لإعادة النظر فيما ذُكر: هل كان النصارى ملقين أسلحتهم حتّى يأتي المسلمون ويجتثوا رؤوسهم؟ وتباينت المصادر الأُخرى في العدد الذي جعلته رقماً لعدد قوات النصارى، فابن الكردبوس ذكر أن عدد قوات النصارى قد بلغ ستين ألفاً، وقال آخر إنهم بلغوا خمسين ألفاً، كما قال غيره إن الفونسو خرج من طليطلة في أربعين ألف فارس غير المدد الذي لحق بهم وانحاز إليهم فيما بعد، في حين ذكر الحميري أن أقلّ رأي في تقدير القوات النصرانية التي اشتركت في المعركة بلغ أربعين ألفاً من ذوي الدروع باستثناء مَنْ كان يتبعهم، إذ كان يتبع الواحد منهم واحداً أو اثنان، وأمّا صاحب كتاب الحلل فقد بالغ في ذلك حتّى جعل مَنْ قُتل منهم ثلاث مئة ألف رجل، في حين أنه قال: إن عدد المسلمين بشقّيهم كان يقدر بخمسين ألفاً. وذكر مؤرخ أوروبي حديث أن الروايات النصرانية كانت قد وصفت حجم القوات الإسلامية كما فعل المسلمون بالنسبة للقوات النصرانية. انظر أبو ملّوح، المرجع نفسه، ص٤٢١-٤٢٢.

ومن النتائج التي أسفرت عنها معركة الزلّاقة ـ والتي كانت بدورها نتيجة من نتائج سقوط طليطلة ـ وقف تقدم الغزاة نحو الجسم الأندلسي فترة من الزمان، ويتضح ذلك من خلال إفشال مخططاتهم في الاستيلاء على بعض المناطق الأندلسية مثل سرقسطة وطرطوشة وبلنسية اللواتي كانت على وشك السقوط لولا قدوم المرابطين(٢١١)، وكذلك من خلال تبعية الأندلس لدولة المرابطين بعد القضاء على حكم عهد دويلات الطوائف فيها(٢١٢)، فكان للمرابطين دور واضح في وقف الهجمة الشرسة نحو الجسم الأندلسي بسبب قيامهم بالمحافظة على المناطق التي استولوا عليها من الأندلس، وقيامهم بخوض معارك قويّة ضد الغزاة الشماليين، واسترجاع بعض المناطق التي خسرها الأندلسيون كاستعادة اقليش عام ٥٠١هـ وطلبيرة عام ٥٠٣هـ(٢١٣)، كما أن طليطلة نفسها هوجمت من قِبَل المرابطين في الأعوام التالية: عام ٤٨٣هـ، ٥٠٣هـ، ٥٠٧هـ، ٥١٥هـ، وتمكّن المرابطون من استعادة مجريط (مدريد) ووادي الحجارة بالإضافة إلى ٢٧ حصناً من الحصون الطليطلية(٢١٤)، وخضوع الأندلس إلى حكم المرابطين كان بالتالي أثراً من الآثار التي نتجت عن سقوط طليطلة.

وأسفرت معركة الزلّاقة عن استعادة بعض مسلمي الأندلس الثقة في النفس بعد الحالة التي وصلوا إليها بسبب الأوضاع التي مرّت بهم، وبرز ذلك بشكل واضح في موقعة الزلّاقة نفسها، إذ أنّ الأندلسيين فرّوا من ميدان المعركة بعد وقت قصير من بدايتها ظنّاً منهم أن

---

(٢١١) ابن أبي زرع، ص١٤٥-١٤٦؛ وانظر ابن الكردبوس، م: ١٣، ص٩١ فإنّه ذكر أن سرقسطة كانت على وشك السقوط لولا قدوم المرابطين.

(٢١٢) انظر الصنهاجي، ص١٤٨-١٥٧، ١٦٤-١٧١، ١٧٢-١٧٤؛ انظر ابن الكردبوس، م: ١٣، ص١٠٤-١٠٧؛ انظر ابن أبي زرع، ص١٥٣-١٥٦، ١٥٩-١٦٠، ١٦١، انظر الحلل، ص٧١-٧٦؛ وانظر ابن الأثير، جـ١٠، ص١٨٧، ١٨٩-١٩٠؛ ابن خلكان، جـ٤، ص١٢٠، ١٢١؛ ابن خلدون، م: ٤، ص٣٤٢، ٣٤٥، ٣٤٦، القلقشندي، صبح، جـ٥، ص٢٥٨.

(٢١٣) انظر ابن القطان، أبو الحسن علي بن محمد، جزء من كتاب نظم الجُمان، يتعلق بأخبار القرن السادس الهجري، تحقيق: د. محمود علي مكي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ص٥-٩، ١٣-١٤.

(٢١٤) انظر ابن أبي زرع، ص١٥٣-١٦١، ١٦٢، ١٦٤، وانظر المصدر نفسه، ص١٥٦، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، بالنسبة لبعض حروب المرابطين للنصارى واسترجاع بعض المناطق والمحافظة على أخرى؛ وانظر ابن الكردبوس، م: ١٣، ص١١٠-١١١، ١١٣، ١١٤-١١٧، ١٢١.

النصـر سيكـون حليفاً (للغزاة)، لكن الموقف تغيّر بعد دخول قوات المرابطين الأساسية وتوجيهها ضربات وصدمات متلاحقة لقوات الأعداء، ممّا حدا بالأندلسيين إلى العودة إلى القتال بصدق واندفاع[٢١٥].

وعندما أزال الموحّدون دولة المرابطين وورثوا أملاكها كانت الأندلس من المناطق التي تبعت لهم في الثلث الثاني من القرن السادس الهجري[٢١٦]، فلذلك يمكن القول أن ما قام به الموحّدون من دور في مقارعة الممالك النصرانية[٢١٧]، يعتبر نتيجة غير مباشرة إلى حدّ كبير لسقوط طليطلة، وذلك أن وجود الموحدين في الأندلس كان ناتجاً بسبب استيلائهم على أملاك الدولة المرابطية التي استولت على معظم مناطق الأندلس الإسلامية، على إثر قدومها لنجدة مسلمي الأندلس.

أمّا دخول المرابطين ومن بعدهم الموحّدين إلى الأندلس، فلم يقض على الداء الذي استشرى في الجسد الأندلسي على الرغم من تغيّر الطبيب المعالج، فالمرابطون ومن ثم تغيّرهم بقـدوم المـوحّـدين لم يوفّـر للأندلس الشفاء الكامل ممّا عانته وكابدته، وما كان ينتـظرهـا، فيمكن وصف ما فعله المـرابـطون ومن بعـدهم الموحّدون أنّه كان عبارة عن مسكّنـات ومهـدّئات عولج بها الداء، ولكنّ وجود المرابطين والموحّدين في الأندلس لم يستأصل الداء من جذوره ولم يقض على أسبابه وروافده التي تغذّيه، فما أن خفّ مفعول جرعات الدواء المسكن حتى اندفع الداء وانتشر إلى سائر الجسد.

---

(٢١٥) انظر ابن أبي زرع، ص١٤٧ـ١٤٨، ١٥١؛ كما إن الحميري أشار إلى أن أُناساً من الأندلسيين انهزموا، وبعد أن أحسّوا بهزيمة الفونسو بدأوا يعودون إلى أرض المعركة: الحميري، ص٩٢، ٩٣. وذكر ابن الكردبوس: أن قسماً من الأندلسيين فرّوا عند بداية هجوم الفونسو إلى السهول والجبال ولم يثبت إلّا المعتمد، وتبع الحلفاء فلول الأندلسيين ثمانية عشر ميلاً في تلك البطاح يقتلون ويأسرون: ابن الكردبوس، م:١٣، ص٩٤.

(٢١٦) انظر ابن أبي زرع، ص١٨٩، ١٩١، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٩؛ وانظر ابن الكردبوس، م:١٣، ص١٢٥؛ وانظر ابن الخطيب، أعمال، ص٢٦٥، ٢٦٩؛ وانظر المقّري، نفح، جـ٤، ص٤٧٧، ٤٧٨؛ وانـظر د. الغنـاي، سقوط دولة الموحدين، ص٢٨ـ٦٧. ثم انظر ابن القطان، ص٢٨ـ٥٠ بخصـوص مبـادىء دولـة الموحدين ونشوئها؛ وانظر بالنسبة لنشوء دولة الموحدين: ابن أبي زرع، ص١٧٢ـ١٧٩؛ الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص٣ـ١١.

(٢١٧) أبو ملّوح، ص٤٢٥.

ومن الآثار والنتائج التي خلّفها سقوط طليطلة انتقال الحضارة الأندلسية المتمثلة في أصناف العلوم والمعارف والفنون المختلفة إلى المغرب بشكل كبير، وامتزاجها مع الحضارة المغربية، بسبب تبعية الأندلس للمرابطين، ومن ثمّ للموحّدين من بعدهم[٢١٨]، كما أن الحضارة الإسلامية الأندلسية وجدت لها منفذاً كبيراً نفذت منه إلى الممالك النصرانية في إيبيريا بعد استيلاء الممالك النصرانية على مناطق أندلسية كمدينة طليطلة، إذ في مثل هذه الحالة لا بدّ من امتزاج حضارة الغالب بحضارة المغلوب، وإذا كانت حضارة المغلوب متقدمة ـ وهي كذلك بالنسبة لحضارة مسلمي الأندلس ـ فإن الغالب سيتأثّر بها لا محالة بعد وقت من السيطرة على البلاد، ويبدأ في الاقتباس منها وتعلّمها، وهذا ما حدث بالنسبة للحضارة الإسلامية الأندلسية، فبدأ (المنتصرون) بالاستفادة منها في شتّى مجالات العلوم والمعارف والصناعات، فشكلوا لهذا الغرض فِرقاً متخصصة لترجمة العلوم والفنون الإسلامية من اللغة العربية إلى اللغة القشتالية، وعمل فريق من التراجمة بصورة خاصة في طليطلة، وبرز ذلك بشكل واضح بعد قرنين من سقوطها بأيدي مملكة قشتالة. ودخلت العلوم إلى أوروبا من الأندلس وصقلية وإيطالية، وإحدى الوسائل الفعّالة التي تمّ من خلالها نقل العلوم إلى أوروبا من الأندلس (إسبانيا)، الترجمة من العربية إلى اللاتينية، وكانت طليطلة من أهمّ المناطق التي عنيت بالترجمة، فكانت بداية أعمال الترجمة فيها بشكل جماعي ومنظّم قد بدأت في العمل عام ١١٣٠م ـ أيّ بعد قرن ونصف من استيلاء قشتالة على طليطلة ـ فترجم كثير من المؤلفات الإسلامية كمؤلفات ابن سينا والرازي وابن رشد، حتّى أن كتب علماء اليونان التي ترجمها المسلمون إلى اللغة العربية، هي الأخرى بدأت تترجم ككتب جالينوس وأفلاطون وأرسطو[٢١٩]. لذلك يمكن القول إن سقوط المناطق الأندلسية بأيدي الممالك النصرانية، كسقوط طليطلة ومثيلاتها من منارات الأندلس الحضارية والعلمية الإسلامية، كانت بداية انطلاقة وتقدم للممالك النصرانية في شبه الجزيرة الايبيرية.

ومن الجدير ذكره أنه على الرغم من الانحطاط السياسي والعسكري والانقسام الذي ساد في الأندلس وما رافقه من حروب وصراعات داخلية بين دويلات الطوائف إلّا أنّ هذا

---

(٢١٨) المرجع نفسه، ص٤٢٥.

(٢١٩) المرجع نفسه، ص٤٢٦-٤٢٧.

الانحطاط رافقه ازدهار حضاري تجسّد في التقدم العلمي في مجالات مختلفة منها الطب والعلوم الطبيعية وفنّ العمارة والهندسة والفلك والآداب و. . . .(٢٢٠).

---

(٢٢٠) انـظر المصادر التالية فقد أشارت إلى بعض الشواهد التي تتعلق بالتقدّم في المجالات العلمية والفنية والمعمارية: كحوضي النافورة في طليطلة وقصورها، والأسود، وظهور أسماء علماء كان لهم دور في حقول العلم والمعرفة والفنّ: انظر ابن صاعد الأندلسي؛ ص٧٣ـ٧٧، ٨٣، ٨٤ـ٨٥، ٨٦؛ انـظر الـطرطوشي، أبو بكر محمد بن محمد الفهري، سراج الملوك، ط١، المطبعة المحمودية، الـقـاهـرة، ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م، ص٤٦؛ انـظر ابن بسـام، ق:٤، م:١، طبعـة ١٩٤٥م، ص١٠٢ـ١٠٥، ١١٤، ١٢٨؛ ابـن سعيد، جـ٢، ص٩، ٢١، ٢٢؛ الـحـميري، ص١٣٢؛ المقّـري، نفح، جـ١، ص٢٠٧، ٥٢٨، ٦٤٤، ٦٤٥، جـ٣، ص٢٤٦، ٤٣٢؛ وانظر المرجع الحديث لمؤلّفه: بالنثيا، آنخل، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، ط١، ملتزمة النشر والـطبـع مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٥م، ص٤٥١. وسأكتفي بإيراد مثال يدلّ على ما وصلت إليه الأنـدلس في عهـد دويلات الـطوائف: بيلتـا طليطلة: (حـوضـا النـافورة):ـ صنعهما عبدالرحمن الزرقال: وهما خارج طليطلة في بيت مجوّف في جوف النهر في الموضع المعروف بباب الدباغين، ومن عجبهما أنّهما تمتلئان بالماء وتنحسران مع زيادة القمر ونقصانه، وذلك أن أوّل بزوغ الهلال يخرج فيهما ماء قليل وفي صباح اليوم التالي كان يصبح فيهما ربع سبعهما من الماء، فإذا كان آخر النهار اكتمل فيهما نصف سبع، ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصف سبع حتّى يمرّ من الشهر سبعة أيّام وسبع ليال، فيكون فيهما نصفهما، ولا تزال كذلك الزيادة نصف سبع في اليوم والليلة حتى يكتمل امتلاؤهما بكمال القمر، فإذا كانت ليلة خمس عشرة وأخذ القمر في النقصان نقصتا بنقصان القمر كل يوم وليلة نصف سبع، حتّى يتمّ القمر واحداً وعشرين يوماً فينقص منهما نصفهما، ولا يزال كذلك ينقص في كل يوم وليلة نصف سبع، فإذا كان اليوم التاسع والعشرون من الشهر لا يبقى فيهما شيء من الماء. ولو حاول شخص أن يضيف إليهما ماء عند نقصانهما فإنهما تبتلعان ذلك الماء في الحال، حتى لا يبقى منه إلّا ما كان، وكذلك العكس، إذ لو حاول شخص إخراج الماء منهما عند امتلائهما لعاد الماء كما كان، وبقيتا على حالهمـا حتى سنة ٥٢٨هـ عندما أمر الملك الفونسو السابع بقلع واحدة لكي يتعرّف على سرّ صنعتهما، فبطلت حركتهما: المقّري، نفح، جـ١، ص٢٠٦ـ٢٠٧.

ظاهرة خطيرة برزت في الأندلس إبّان فترات الانهزام والفُرقة

وممّا يلفت الانتباه ويثير التساؤلات والشكوك بروز ظاهرة إشراك القيادات الشعبية والعلماء والفقهاء والمعارضين وإقحامهم في عملية التفاوض والتوقيع على اتفاقيات ومعاهدات السلام والتسليم، كما حدث في طليطلة ولأهلها ـ وكذلك الأمر بالنسبة لغرناطة[٢٢١] ـ عندما فاوض وفد من القوى الشعبية ذات التأثير الفونسو السادس، في حين أفادت بعض الإشارات أن اتفاقاً سرياً عُقد بين الفونسو والقادر بالله، بعد إخراج الأخير من العاصمة وفراره منها خوفاً على نفسه؛ نتيجة لحالة الغضب والتمرد التي سادت طليطلة بعد تدبير مكيدة القضاء على شخصية ابن الحديدي المحبوبة والمقبولة من العامة.

وكان من بنود ما تمّ الاتفاق عليه أن يسهل القادر بعد سنوات من إعادته إلى عاصمته

---

(٢٢١) انظر عنان، نهاية الأندلس، ص١٤٦ وما بعدهما، ١٩٠-١٩٦، ٢١٥-٢٢٣، ٢٢٤-٢٢٩، وانظر نصّ المعاهدة وشروطها ص٢٣٠-٢٥٠: فقد نقل المؤلف وثيقة تسليم غرناطة وترجمها من القشتالية إلى العربية ـ لأوّل مرّة كما زعم ـ علماً بأنّ الطبعة الأولى من كتابه قد صدرت عام ١٩٤٩م. والتي يُستشفّ منها ما أشرت إليه في المتن. وانظر ما كتبه الأمير شكيب أرسلان (خلاصة من تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة) المذيّلة على كتاب بريان، الفيكلونت دوشاتو، آخر بني سراج، مطبعة الأهرام، الاسكندرية، ١٨٩٧م، ص٤٠٠-٤٠٦. وانظر ما كتبه الأمير شكيب أرسلان في كتاب حاضر العالم الإسلامي، حول نصّ معاهدة تسليم غرناطة: ستودارد، لوثروب، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة: الأستاذ عجاج نويهض، م:٢، نشر: مكتبة ومطبعة عيسى البابي، القاهرة، ١٣٥٢هـ، ص٦-١٠ وما بعدها. أمّا بالنسبة لِما أوردته بعض المصادر العربية حول ما جرى لغرناطة وأهلها عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩١-١٤٩٢م انظر المقّري، نفح، جـ٤، ص٥٢٤-٥٢٧؛ وانظر أهمّ وثيقة عربية عاصرت أحداث تسليم غرناطة وسقوطها بأيدي القشتاليين والأرغونيين، كون مؤلفها كان شاهد عيان شارك في بعض الأحداث، فإنّ فيها الكثير من المعلومات الهامّة حول معاهدة تسليم غرناطة وشروطها والمشاركين في قرار التسليم، وما جرى تطبيقه والتقيّد به من شروطها فِعلاً بعد تسليمها، وما حدث بعد ذلك من تسهيل للهجرة وترغيب فيها، ووضع التسهيلات اللازمة لذلك، ومن ثمّ ما حدث من تهجير إجباري للغرناطيين بعد ذلك: مؤلف مجهول، نُبذة، ص١٢٠-١٢٨ وما بعدها.

تسليم واستسلام البلاد للقوات الغازية في الوقت المناسب، بعد تهيئة كلّ الظروف النفسية والاقتصادية والعسكرية والمعنوية والسياسية، لذلك قصد تمرير المخططات المعدّة من خلف ظهراني العامّة والقيادات المحلّية، فكان انتهاجه سياسة البطش والقسوة التي أدّت في النهاية إلى أن يرتاع المواطن من ظلّه، وإن حكام دويلات الطوائف لعبوا دوراً خطيراً ومهمّاً ـ وعلى رأسهم حاكم أكبر دويلة من دويلاتهم آنذاك ـ في إيصال طليطلة وأهلها إلى المصير الذي صاروا إليه، كي تستسلم ويقوم أهلها ممثّلين بالقيادات الشعبية والفكرية، والفاعليات ذات التأثير في القرار الطليطلي لخوض معركة السلام عن طريق المفاوضات، لتمرير وتنفيذ ما كان قد تم إعداده وإنضاجه على نار هادئة من خلف ظهرانيهم للقبول بما هو معروض عليهم.

وإن نظرة فاحصة إلى نصوص الاتفاقية، والتطبيق العملي لها تبيّن للناظر في الوهلة الأولى أن ما ورد فيها من بنود قد ضمن للطليطليين بعض الامتيازات والحقوق، وأن تلك النظرة ستتغير وتختلف بعد مرحلة التسليم، إذ أن الأمر اتضح، وانكشفت النوايا، فلم يطبّق منها سوى ما يخص القادر وتنصيبه حاكماً على بلنسية لأنّ في ذلك مصلحة للغزاة، وكذلك السماح بالهجرة بل وتشجيعها. . . فالغزاة هم هم لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمّة، ولا يلتزمون بعهودهم ووعودهم ومواثيقهم، إنما هي مرحلة، ثمّ يتابعوا مخططاتهم وخطواتهم التالية، فقد تبيّن مدى ما التزم به القشتاليون ممّا عاهدوا عليه!! فكان تحويل المسجد الجامع إلى كنيسة قبل أن يمضي أقلّ من شهرين على توقيع الاتفاقية، بل إنهم قد دنّسوا حرمته وقدسيّته في أوّل يوم دخلوا فيه العاصمة.

تابع المنتصرون ـ نهج المنتصرين دائماً إذلال وقهر الشعوب المغلوبة ـ تشريد العائلات عن أوطانهم، وخلق حالات من الفقر والقهر الشديدين؛ إذ إن سقوط طليطلة في أيدي القشتاليين، لم يكن نتيجة فجائية أو تلقائية، بل كان نتيجة حتمية متوقعة لما سبقها من الأحداث الجسام في الأندلس، كانهيار الوحدة التي كانت تجمعهم، وتردّي الأوضاع السائدة في ذلك الوقت، وسوء الحالة التي وصل إليها الأندلسيون سواء أكانت أسبابها ذات علاقة بالانهزام الروحي والعجز المادّي الذي نتج عنه انهزام سياسي وتدهور اقتصادي وتفكك اجتماعي وتراجع ثقافي عند المسلمين في الأندلس، أو لأسباب أخرى. وبالمقابل كانت الأسباب الروحية والمادّية عند القشتاليين في أوجها، وساعدهم على ذلك انعدام الوحدة بين الأندلسيين التي كانت عاملاً هامّاً ومباشراً في الوقت نفسه في دفع طليطلة وأهلها

إلى المصير المحتوم.

وساهم عدم الوعي وعدم وضوح الرؤيا لدى الأندلسيين حكّاماً ومحكومين كذلك في سقوط طليطلة، فالمصالح الشخصية والأنانية وحبّ الذات واللّذات والحرص على الزعامات والمناصب كانت تسود المجتمع الأندلسي في ذلك الوقت، فَصيّرته تدريجياً إلى أن وصل إلى أسوأ حالاته لدى الحكام ومعظم المحكومين في الفترة الأخيرة للوجود الإسلامي في طليطلة وباقي دويلات الطوائف قبل دخول المرابطين وتوحيدهم الأندلس مع المغرب تحت حكمهم.

كما أن زحف الآلاف من مسلمين المناطق الحدودية التي سيطرت عليها القوات القشتالية وغيرها من الممالك النصرانية الأخرى تباعاً إلى العاصمة، أدّى إلى زيادة الأعباء على المنطقة المتبقية من دويلة طليطلة، بالإضافة إلى حرمانها من موارد تلك المناطق الحدودية المحتلّة، وبالتالي فإنّ ذلك الوضع أدّى إلى الضعف المستمر في الكيان المتبقي لدويلة طليطلة، هذا عدا عن المبالغ الطائلة التي كان على طليطلة أن تؤدّيها للقوة القشتالية الزاحفة، وأدّى ذلك الضغط السكاني إلى خفض مستوى المعيشة وزيادة عدد الفقراء، وتفشي ظواهر اجتماعية سيئة . . ، ممّا أوصل البلاد إلى ضائقة اقتصادية أثّرت هي الأخرى في تردّي الأوضاع الاجتماعية التي ما كانت لتكون بهذا الشكل، لو أنّ حال الأندلسيين كان أفضل ممّا كان عليه، فأثّر ذلك كلّه على المآل السياسي الذي آلت إليه طليطلة ممّا دفعهم إلى الموافقة على توقيع اتفاقية تسليمها.

ويضاف إلى ما سبق الاقتتال والصراع بين دويلات الطوائف فيما بينها، والنزاعات الداخلية في طليطلة والمناطق التابعة لها، سواء أكان نزاعاً في داخل الأسرة الحاكمة أو الثورات والصراع بين السلطة الحاكمة والمعارضة، أو ذلك الصراع المدمر بين بعض فئات المجتمع الطليطلي، وما أنتجه ذلك الصراع وتلك النزاعات والدسائس والمؤامرات من استنزاف لموارد الدولة الاقتصادية والعسكرية، وتدني الروح القتالية والصمود لدى ما تبقّى من الدويلة الطليطلية.

ومن الأسباب التي ساهمت في تسريع سقوط طليطلة وتوقيع اتفاقية تسليمها عدم وجود الإرادة لدى مسلمي تلك الحقبة التاريخية لوقف مسلسل الاقتتال الداخلي وتوقيف دفع الضرائب للممالك النصرانية وتقديم الهدايا لهم، والتآمر والتواطؤ مع الغزاة على المدينة

وأهلها، وعدم إيثار مصالح الأمّة والوطن على المصالح الشخصية والأطماع السلطوية وشهوة الحكم.

أمّا العوامل المتعلقة بالجانب القشتالي فإن وضوح الرؤية وإرادة القتال، والتصميم على إنهاء هيمنة الوجود الإسلامي السياسي والثقافي في الأندلس على حدٍّ سواء، وعدم تمكين المسلمين من التقاط أنفاسهم ومحاولة استعادة وحدتهم، كان قد بلغ أعلى درجاته عند القشتاليين في تلك الحقبة الزمانية وقد ساعدهم في ذلك تدخّل بعض مناطق أوروبا الغربية، وخاصة المناطق الجنوبية من فرنسا.

ممّا سبق يمكن القول إن الدعم المادّي والمعنوي قد ساعد في رفع درجة القتالية والاندفاع والتصميم لدى الممالك النصرانية، في حين أن حالة التشرذم والتفكك كانت سائدة في الجانب الإسلامي، مُضافاً إلى ذلك الحالة المهتزة التي كان الأندلسيون عليها، وعدم الثقة بالنفس وانعدام الروح القتالية، وعدم معرفة ما يتوجب فعله والتخطيط لمواجهة ذلك الخطر عند الغالبية العظمى منهم، وقد ساعد في ذلك الوضع وجود أشخاص وفئات لم يعد يربطها أيّة روابط بمصير الأندلسيين، وقد ساهم المتنفذين في تقرير المصير الذي آلت إليه طليطلة، وكان لهم دور كبير في الوصول بجماهير الأمّة إلى تلك الحالة المتردّية من الضعف والهوان وعدم المبالاة.

ثمّ كان من أمر الفونس السادس ما كان من الاستعداد والتهيؤ للاستيلاء على بقيّة أجزاء الأندلس (دويلات الطوائف) وإعداده ناقوساً معتبراً ليضعه في مسجد قرطبة الجامع، بداية لاستعداده لوضع التاج على رأسه بعد أن تتم له السيطرة على جميع الأندلس.

إن إشراك الفعاليات الشعبية والقيادات الفكرية والوطنية كالعلماء والفقهاء (الطليطليين) في عملية المفاوضات والتوقيع على اتفاقية تسليم طليطلة يؤكّد خطورة قبول القيادات الشعبية والفكرية والفاعليات ذات التأثير في القرار الشعبي الدخول إلى مثل هذه الميادين في الفترات الحرجة والخطيرة التي تمرّ بها الأمّة بالذات. . . لأنّ إشراكهم وإقحامهم سيكون تشويهاً وتزويراً للحقيقة، وفي الوقت نفسه تمويهاً، وتغريراً بالأمّة، وبمن يتأسون بتلك القيادات، أو ينظرون إليهم نظرة اقتداء وإعجاب، والأخطر من ذلك أنّهم سيكونون عناصر تسكين وتخدير لمشاعر الجماهير، وتضليلهم، لتمرير المخططات المعدّة من خلف أظهرهم.

والأدهى من كلّ ذلك صبغ المعاهدات والاتفاقيات ـ التي تمّت بين مسلمي طليطلة والقشتاليين، ومسلمي غرناطة وفرديناند وجموعه ـ بصبغة قانونية وشرعية لإلزام الأمّة والوطن بما تمّ الاتفاق عليه وإلزام الشعب وتكبيله بمثل هذه الاتفاقيات. . .

ومن الجدير ذكره أن سياسة طبّقت في هذا العصر تشبه إلى حدٍّ ما السياسة التي اتّبعها الغزاة مع طليطلة كما مرّ آنفاً، ومثال ذلك: ما جرى في مصر(٢٢٢) في النصف الأول من القرن الحالي، عندما كان يتمّ إنشاء مجالس تشريعية (نيابية) بقصد تمرير معاهدة أو اتفاق، أو للتوقيع عليها، أو لسنّ قوانين وتشريعات أو إقرار زيادة في الأسعار. أو تمرير صفقة من الصفقات. . .

وممّا سبق يُلاحظ أن الاتفاقيات والتشريعات التي أُقحم فيها ممّثلو الشعب كانت في حقيقتها وجوهرها ضدّ مصالح الأمّة والوطن، وأن الشعوب كُبّلت بها لأنّ التوقيع عليها وإقرارها تمّ باسم الشعب وعن طريق القيادات الشعبية نفسها! والتي ما جيء بها إلاّ للتوقيع، وذلك بعد القيام ببعض الحركات والاستعراضات الوهمية التي تسبق عملية إجراء المفاوضات حول ما أريد له أن يتمّ، والذي غالباً ما يكون إعداده مسبقاً فيصبح بعد ذلك ملزماً للأمّة في حاضرها ومستقبلها.

ويبدو أنّ المناقشات المتعلقة بمصير الأمّة ومستقبلها والتي تجري في المجالس التشريعية (النيابية) وإقرارها بالأغلبية المطلقة كما حدث في مصر وكما يحدث الآن في أكثر البلدان، كانت تُهيأ لها القيادات الشعبية في الوطن لتفاوض فتوقّع باسم الشعب والوطن، بينما حقيقة الأمر أنّ كلّ شيء معدّ بخطوطه الرئيسة أو حتّى تفصيلاته إعداداً محكماً، سواء أعلم هؤلاء المفاوضون والممثّلون وتلك القيادات أم لم يعلموا. . .

---

(٢٢٢) وقد نبّه استاذ معاصر إلى الغرض الذي كانت المجالس التشريعية، (النيابية في مصر): تُنشأ لأجله، انظر غرايبة، الأستاذ الدكتور عبدالكريم، ـ أطال الله في عمره ـ، دراسات في تاريخ أفريقية العربية ١٩١٨ـ١٩٥٨م، ط١، مطبعة جامعة دمشق، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م، ص٣٧، ٧٧ـ٧٨.

القصاص العادل

ونعرّج أخيراً على بلنسية لنرى مصير بطل الضياع[٢٢٣] ـ ضياع دويلة طليطلة ـ بعد أن سلّمها للغزاة، وذلك للاطمئنان على أوضاعه! بعد أن توالت انتصارات المرابطين إذ أنّهم أقـدمـوا على الإطاحة بحكّام الانقسام والاقتتال الداخلي بتشجيع من جموع المواطنين الأندلسيين، وما أن ترامى إلى أسماع البلنسيين تقدّم قوات مرابطية إلى مرسية والاستيلاء عليها بقيادة القائد داود بن عائشة، حتّى راسله أهل بلنسية فدعوه فاستجاب لهم وأرسل نائبه بجيش من المرابطين.. فلمّا علم القادر فرّ من القصر محاولاً الهرب من المدينة، ولكنّ تيقّظ المواطنين في بلنسية وتيقّظ قيادتهم الشعبية ممثّلة بالقاضي ابن جحاف المعافري كانوا له بالمرصاد، وفوّتوا عليه فرصة النجاة بعد أن أغلقوا أبواب المدينة وسدّوا منافذها، فاضطرّ إلى الاختفاء والاختباء في بعض الدور الخالية.. ونتيجة للتحرّي عنه، وقيام مجموعات من المواطنين بذلك وتحمّسهم للقبض عليه وإنزال العقوبة به والقصاص منه.. جرّاء ما اقترفقت يداه في طليطلة وبلنسية... فقد أُلقي القبض عليه واقتيد في ليلة الجمعة لسبع بقين من رمضان من عام ٤٨٥هـ[٢٢٤] وقيل إن ذلك كان في عام ٤٨٣هـ[٢٢٥]، وسيق إلى القاضي، فأصدر عليه الحكم والقصاص العادل الذي يستحق.

وقد نفّذ به الحكم فتىً من بني الحديدي.. وطيف برأسه في طرقات المدينة.. كما أن أمواله وممتلكاته صودرت، وطُرحت جثّته في سبخة.. ولم يتقدم إلى تلك الجثّة إلاّ

---

(٢٢٣) أمّا بالنسبة لِما آل إليه مصير بطل ضياع غرناطة وتسليمها، ومصير أهلها، ونقض الغزاة لمعاهداتهم ونكث مواثيقهم، انـظر المؤلفـات التـالية: نُبـذة، ص١٣٥-١٤٣؛ المقّـري، نفـح، جـ٤، ص٥٢٧-٥٤٨؛ المقّري، أزهار، جـ١، ص٦٧-١٠٢؛ عنان، نهاية، ص٢٥٠-٢٥٦، ٢٥٨-٢٧٣.

(٢٢٤) ابن الخطيب، ص١٨٢؛ ابن الكردبوس، م:١٣، ص١٠٣؛ مؤلف مجهول، ذيل، ص٣٠٥.

(٢٢٥) انظر ابن خلدون، م:٤، ص٣٤٩، م:٦، ٣٧٢. وقيل إن ذلك حدث عام ٤٨١هـ.

رجلاً، احتساباً وصدقة فقام بإخراجها. . ودفنها دون كفن[٢٢٦]. . وكان قصده تغييب الجثّة.

فكم هم الذين حزنوا وتألموا لما آل إليه مصير القادر بالله؟ وكم هم الذين تأسّفوا عليه وساروا خلف جنازته؟! وما هو مقدار الأموال التي تمكّن من أخذها معه في رحلته الأبدية؟! وأين وضعت جثّته. . ؟ وهل أنّ مثواه الأخير في قصوره أو بساتينه؟!! وما هو جزاءه وما هي مكانته عندما يقوم الأشهاد؟!!

هكذا وبهذه الطريقة وإلى هذا المآل كان مصير مَنْ سلّم البلاد وضيّع الدولة والعباد وتآمر مع الغزاة الأوغاد. . . فها هو لم يحمل معه شيئاً من أمواله وممتلكاته ـ التي نهبها من الشعب أو حاز عليها جرّاء عمالته ـ وسلطانه وكرسيّ حكمه، ولم يخلف وراءه إلّا سيرة يشمئزّ منها ذوي النفوس والعقول السويّة. . بل إنه لم يحصل على كفن ولم يمش في جنازته أحد. . هذا عدا عن تخليد بطولته ومخازيه في التاريخ. .

وخزيه يوم الحشر يوم يقوم الأشهاد أشدّ وأبقى.

---

(٢٢٦) ابن الخطيب، ص١٨٢.

الخاتمـــة

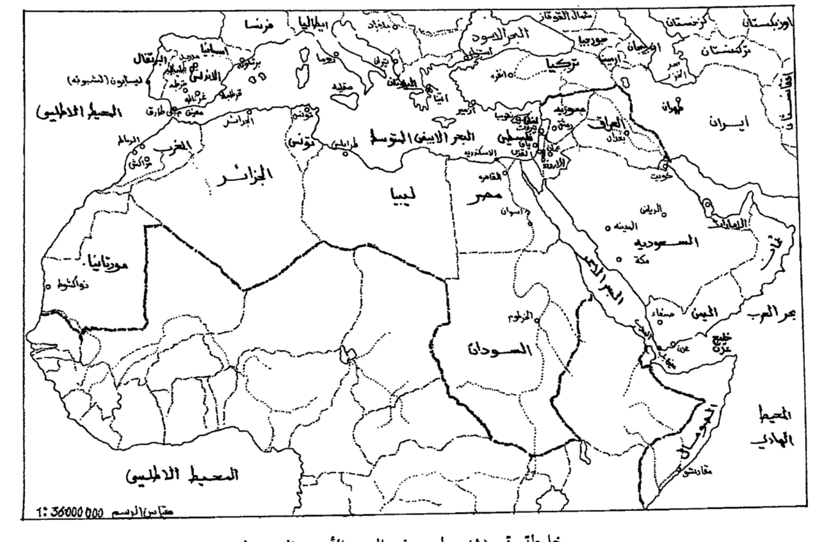
إن تمزق وحدة الأندلس في أوائل القرن الخامس الهجري - في ظروف حالكة وأوضاع متردّية على أثر سقوط السلطة المركزية فيها - وقيام دويلات الطوائف وممارساتها وسياساتها الداخلية والخارجية، إن ذلك كلّه أدّى إلى إيصال الأحوال السياسية والاقتصادية والعسكرية والمعنوية في الأندلس إلى حالة متردّية وصعبة أضعفت الوجود الإسلامي ومزّقته، وتركته أشلاء متناثرة، قابل ذلك في الجانب الآخر زيادة قوة الممالك الشمالية وتوسّعها على حساب المناطق الأندلسية حيث تمكنت تلك الممالك أخيراً من التهام أجزاء كبيرة من المناطق الأندلسية المهمة والحسّاسة وعلى رأسها طليطلة عام ٤٧٨هـ، بتواطؤ من أعيان المدينة وحكّامها، وأقرانهم من سادة دويلات الطوائف. وهذا أثّر بالتالي على الأوضاع في تلك المنطقة وأدخل إليها عوامل جديدة أفرزتها الأحداث والمعطيات السياسية والعسكرية والاجتماعية التي أدّت إلى سقوط طليطلة من أيدي المسلمين. إن ما حدث في الماضي (في طليطلة) بسبب العوامل التي أدّت إلى سقوطها كفيل بضياع مناطق من أيدي هذه الأمّة - أو أيّة أُمّة تمرّ في ظروف مشابهة - إذا لم تتلافَ الأسباب والمسببات التي أدّت إلى ضياعها. وإن دراسة الماضي تصبح ضرورة مُلحّة إذا اعتبر بها مَنْ يقرأ الماضي ليستفيد منه في الحاضر والمستقبل.

الوعد الرباني في الأرض المباركة

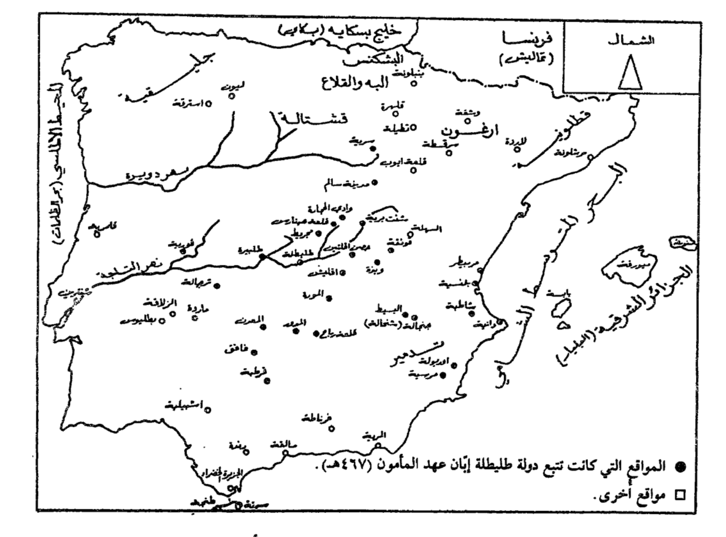
بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا

عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء].

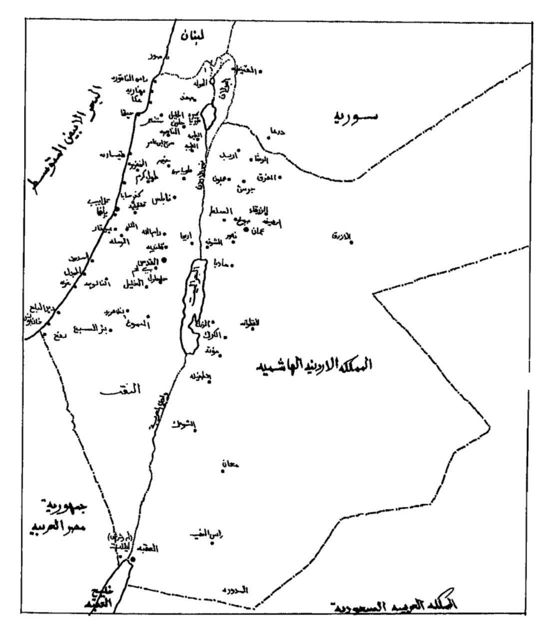


خارطة رقم (١) دول حوض البحر الأبيض المتوسط

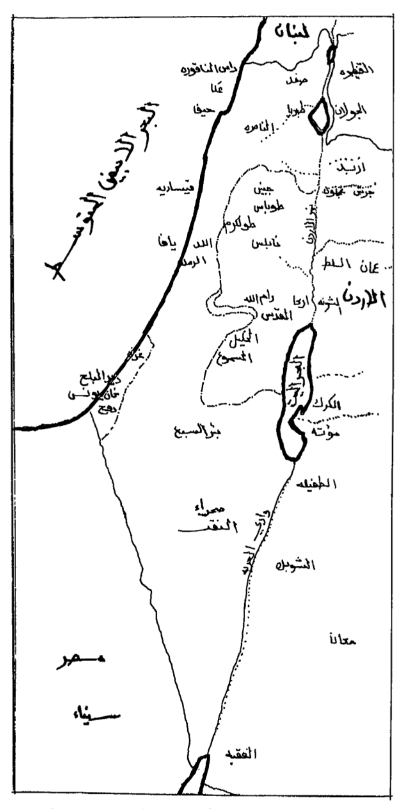


● المواقع التي كانت تتبع دولة طليطلة إبّان عهد المأمون (٤٦٧هـ).
□ مواقع أخرى.

خارطة رقم (٢) المواقع التابعة لدولة طليطلة في عهد المأمون عام (٤٦٧هـ)



خارطة رقم (٣) الأردن وفلسطين



خارطة رقم (٤) فلسطين المغتصبة عام (١٩٤٨-١٩٦٧)

الفهرس